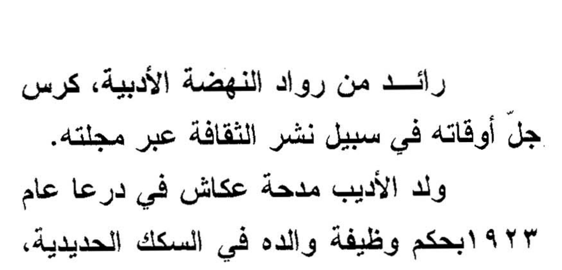
مدحة عكاش

الأديب والشاعر والصحفي

بقلم:

يوسف عبد الأحد



رائـــد من رواد النهضة الأدبية، كرس جلّ أوقاته في سبيل نشر الثقافة عبر مجلته.

ولد الأديب مدحة عكاش في درعا عام ١٩٢٣بحكم وظيفة والده في السكك الحديدية، فهو حموي مواطنة ودمشقي إقامة.

تـلقى دراسـته الابـتدائية في مدينة حمـاه، والإعدادي والثانوي في دمشق وحلب ثم تابع دراسته الجامعية في كلية الحقوق ونال إجازتها عام ١٩٥١.

درّس الأدب العـربي فـي ثانويـات دمشق إلى جانب عمله الصحفي ثم عيّن مديراً لكـلية دمشـق العـربية وبعدها نقيباً للتعليم الخاص في سوريا.

تـرأس العديـد من الجمعيات الأدبية وهو عضو في لجنة الشعر في المجلس الأعلى لـرعاية الفـنون والأدب، وعضــو في اتحاد الكتاب العرب.

كـتب الشـعر فـي سن مبكرة ونشر العديـد مــن قصـائده ودراسـاته الأدبية في الدوريـات والصـحف العـربية، ويعد مرجعاً لقواعد اللغة العربية وآدابها.

وفـي عام ١٩٥٨ أصدر مجلة الثقافة الشـهرية وهــي تعنى بشؤون الأدب والثقافة والدراسـات وصدر العدد الأول منها في شهر أيــار وأصدر أعداداً خاصة عن كبار الشعراء والأدبــاء العــرب، نذكر منهم الشاعر القروي واليـاس فرحات وعمر أبو ريشة وبدر الدين الحــامد وعن أدباء المملكة الأردنية الهاشمية والممـلكة العـربية السعودية وعن الأدب في القطـر الجزائـري وعــن الحركة الأدبية في

الجماهيرية العربية الليبية وعن الأدب المهجري وغيرهم.

وفي منتصف الستينات وبالتحديد في ١٧أيلول ١٩٦٦ تحولت المجلة الشهرية إلى مجلة (أسبوعية) وكانت تصدر كل يوم سبت باسم (الثقافة الأسبوعية) ثم عادت في عام ١٩٧٥ المجلة الشهرية إلى جانب الأسبوعية في الصدور ولا تزال المجلتان تصدران حتى يومنا هذا.

وفي عام ١٩٨٤ احتفل الأديب مدحة عكاش باليوبيل الفضي بمناسبة مرور ٢٥ خمس وعشرين سنة على صدور المجلة وأصدر عدداً خاصاً ضم بين دفتيه مجموعة كبيرة من الرسائل والكلمات والقصائد التي تلقاها من أصدقائه وكبار الأدباء والمفكرين والشعراء وجميعها تشيد بجهوده الكبيرة والمتواصلة التي بذلها في سبيل نشر الثقافة والأدب الرفيع من خلال مجلتيه.

ومما جاء في كلمة الأستاذ مدحة عكاش في عدد كانون الثاني ١٩٨٤ الخاص باليوبيل الفضي قال:

"ولعلّ ما نعتز به هو محاولتنا الأولى للقاء الأدباء العرب على امتداد أقطارهم على صفحات هذه المجلة فعمدنا إلى اصدار أعدادنا الخاصة عن محافظات القطر أولاً وتجاوزنا ذلك إلى الأقطار العربية فغدت هذه الأعداد وثائق ترصد أدب العرب في هذه المرحلة من تاريخنا".

الأستاذة حنان نجمة كرّمت الأديب مدحة عكّاش في صالونها الأدبي بتاريخ ٦/٩/١٩٩٠ خصصت الأمسية لتكريمه وقد قدمته بكلمة رقيقة قالت:

"إنها لغبطة لنا جميعاً أن نكرّم في جلستنا اليوم صديقنا الغالي الأستاذ الكبير مدحة عكاش الذي لا أدري بماذا ألقبه، إنه أستاذ الأجيال، وفارس الثقافة، وذاكرة الوطن، وديوان العرب".

ثم ألقى الأديب يوسف عبد الأحد سيرة حياته وتاريخ المجلة، ثم تحدث الأستاذ شهير دريعي صديق الطفولة عن نشأة مدحة عكاش ومرحلة الدراسة ما بين أواخر الثلاثينات وحتى منتصف الأربعينات حيث كان مدحة على رأس المشاركين في الكفاح الوطني والمناسبات الأدبية رغم صغر سنه، حيث أن البذور الأبية والشعرية كانت قد بدأت تتوضح لديه".

ثم قدم الأديب عبد المعين الملوحي مدحة عكاش من خلال عشر لوحات رائعة بلغته الأدبية الجميلة بيّن فيها القيم الرفيعة والخصال السامية في تعامله وتصرفاته، حيث كرّس قيم الصداقة الحقيقية والوطنية الصافية، إذ أنشد وهو في العشرين من عمره:

لا تقل أمتي أضلت خطاها
واستكانت للذل والبأساء
يشهد الله أننا ما بخلنا
بنفوس كريمة سمحاء

ثم ألقى كل من الشعراء: منذر لطفي، خضر الحمصي، جابر خير بك، سعيد قندقجي، شوقي بغدادي، قصائد رائعة كانت هدية غالية لصديق غالٍ حباً وتقديراً ووفاءً.

ثم تحدث الأساتذة الأدباء حسين حموي وميخائيل عيد ووليد مدفعي، والدكتور حسام الخطيب عن خصاله الكريمة وتواضعه ومحبة الأصدقاء ومساندتهم وعن طريقة

تدريسه في ترسيخ القيم النبيلة في نفوس طلابه في الثانوية الأهلية.

وفي الختام ارتجل الأستاذ مدحة كلمة لطيفة عبّر فيها لأصدقائه عن شكره العميق وامتنانه وتأثره لهذا التكريم النبيل الذي لقيه منهم في هذه الأمسية الرائعة".

نال جائزة جبران خليل جبران العالمية

منحت لجنة رابطة إحياء التراث العربي في أوستراليا برئاسة الأديب كامل المر جائزة جبران العالمية إلى الأديب مدحة عكاش تقديراً لشخصه وجهوده في نشر الثقافة وبخاصة الأدب المهجري عبر مجلته الأسبوعية والشهرية.

والجائزة عبارة عن ميدالية ذهبية ملونة معلقة بأشرطة حريرية بلون العلم العربي، ولوحة براءة من الرابطة مكتوبة بخط ذهبي جميل وبصورة جبران، وقد تأسست هذه الرابطة عام ١٩٨١ ومنحت هذه الجائزة لأكثر من خمسين شخصية أدبية وفكرية وفنية وعلمية في أوستراليا والوطن العربي.

تاريخ مجلة الثقافة الشهرية والأسبوعية

أسس مجلة الثقافة الشهرية في شهر أيار سنة ١٩٥٨ وداراً للنشر وقد بلغ عدد الكتب التي نشرها ما ينوف عن ٤٠٠ كتاباً لأُدباء سورية والأقطار العربية.

وفي عام ١٩٨٤ احتفل باليوبيل الفضي بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على صدور المجلة، واصدر أعداداً خاصة وملفات عن عدد كبير من الأدباء والشعراء نذكر منهم الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري) والياس فرحات والمؤتمر الثالث لوزراء الإعلام العرب في دمشق عام ١٩٦٦، والشاعر بدر الدين الحامد والشاعر وجيه البارودي وخير الدين الزركلي والشاعر عمر أبو ريشة وقد بلغ مجموع الأعداد الخاصة حوالي المئة.

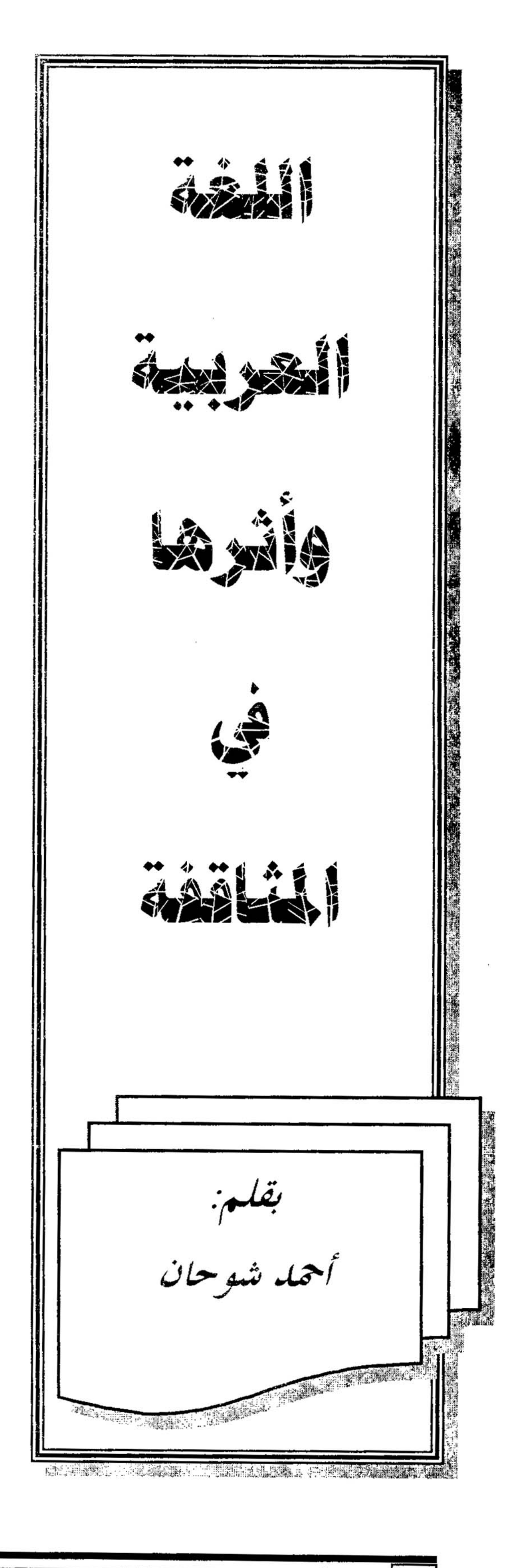
استمرت المجلة الشهرية سبع سنوات حتى شهر أيلول ١٩٦٦ ثم تحولت إلى أسبوعية وصدر العدد الأول في ١٧ أيلول ١٩٦٦ وبعدها استأنف إصدار المجلة الشهرية في عام ١٩٧٥ ولا تزال المجلتان الشهرية والأسبوعية تصدران بانتظام حتى تاريخه.

أعماله المطبوعة

١-ابن الرومي – دراسة – ١٩٤٨.
٢-رسائل الجاحظ – دمشق ١٩٦٦
٣-من روائع الأدب الأندلسي – دراسة ومختارات.
٤-القصائد الأولى – لبيتر تومبست – مترجم عن الإنكليزية.
٥-كتاب الثقافة – فصلية – صدر العدد الأول والثاني عام ١٩٧٠.
٦-بدوي الجبل – دراسة ومختارات ١٩٦٨.
٧-ديوان شعر (يا ليل) ١٩٨٠.

المخطوطات

١-أوراق عمر.
٢-صحيح اللغة.
٣-مجموعات قومية.



تعتبر اللغة هي الوسيلة الفضل للتفاهم والتعبير على ما في نفس الإنسان من مشاعر وأحاسيس وأفكار نحو الآخر، وتتعدّى الإنسان ليتقرّب من خلالها إلى الحيوان والطير، للتعبير عما يريده منهما أو يُكنه لهما.

ولغة الإنسان منذ كانت، وأنّى وُجدت تـأخذ مـن غيـرها، وترفد أخواتها وجاراتها بكلمات أو مصطلحات أو عبارات لا تزال تستعمل وتتداول على الألسنة وجيلاً بعد جيل، حتى تكون فيما بعد من مفرداتها التي تعتبرها من جذورها الأصيلة.

واللغة تساير الفكر الإنساني وتواكبه، فكمـا نجده متطوراً في شعب دون آخر، فإننا نجـد لغتـه متطورة بهذا الفكر، وحيثما نجده متردياً في أمة أو شعب، فإننا نجد لغته مترديـة متخلفة ميتة.

والـلغة الحيـة هي التي تأخذها من غيرها فتتأثر، وترفد اللغات الأخرى بمخزونها فـتؤثر، أما اللغة التي ترفض الأخذ والعطاء، فهـي لغـة ميـتة، أو في طريقها إلى الموات الـبطيء، وبقـدر الكم الذي تأخذه اللغة من غيـرها، وتقدمـه لمثيلاتها يتقرر حجم حيوية اللغة وقدرتها على البقاء، فالأخذ والعطاء من ضـرورات الـلغة، وبهمـا تتلاقح مع اللغات الأخرى للرقي والبقاء والازدهار.

وكمـا أن الجمـود والتقوقع في اللغة يضر ببنائها الداخلي، فكذلك التقوقع في العلوم الأخـرى يجعلها جامدة متحجّرة، لا تزال تفقد مـن بـنيانها كـل يوم حجراً بعد حجر، حتى نجدهـا فـي النهاية تفقد الأسس التي ارتكزت عـليها، وكـانت تقف على قدميها من خلالها، ولذلـك نجـد الذيـن يتـباكون على ضرورة المحافظـة على جوهر اللغة ونقائه بعدم الأخذ مـن الـلغات الأخرى يهدمون صرح اللغة من حيـث لا يعلمون، وإذا كانت هذه الصيحات لها مـا يبررها في عصور سابقة، فإن ثورة العلم فـي عصر المعـلوماتية تجعـل تلك المقولة

مرفوضة من أجل بقاء اللغة حيَّة، فلو طوينا صفحة المفردات والمصطلحات العلمية الوافدة من الشرق والغرب، لرأينا أنفسنا نعيش في قوقعة مفرغة، بل لوجدنا أنفسنا نعيش خارج إطار التاريخ المعاصر، والحداثة التي لا بد من مواكبتها لضرورة البقاء.

والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، فرغم أنه نزل بلغة العرب، وعلى نبي عربي الأصل واللسان، فإنه قد حوى ما ليس من أصل لغته، فلم نجد في تفاسير القرآن أحداً من الصحابة يستنكرها، أو يسأل عن معانيها، أو يستغرب وجودها في كتاب عربي مبين.

يقول الدكتور مسعود بوبو رحمه الله: (لغتنا العربية ليست بدعاً بين اللغات، فلم يكن أصحابها معزولين عن الاختلاط بالأقوام المجاورة لهم، ولا كانت هي بريئة من التأثر في اللغات أو نقية من التأثر بها. لقد أخذت من الإغريق بقدر ما أعطت اللاتين فيما بعد وأخذت من الأنباط والسريان ثم أعطتهم حتى اضمحلت لغتهم أمامها تدريجيا، وأخذت من الفرس قبل زمن الأكاسرة، وقبل أن تكون الحيرة مملكة المناذرة حلقة الاتصال بين العرب والعجم، ووصلها اليمن القديم السعيد بلغات الأحباش والهنود والصينيين، بفضل الموقع الجغرافي التجاري الذي كان صلة الوصل بين العرب والأمم القديمة، وبين الشرق والغرب).

إذاً نستطيع أن نقول: إن الدخيل على اللغة (أية لغة) هو نعمة يدفعها نحو التقدم والازدهار، وليس كما يظن البعض أنه يهدم بنيانها، ويشوّه جمالها، ويزعزع أصالتها!!

قدسية اللغة العربية

إن القبائل العربية لم تكن تقطن مكاناً واحداً، أو تقيم في رقعة محدّدة لتحافظ على لغتها كتغلب، وبكر بن وائل، وتميم، وقيس، ولكنها كانت تتجول أو تهاجر، وتتنقّل صيفاً وشتاءً بحثاً عن الاستقرار الذي تحقق من خلاله الحياة الرغيدة، فتأخذ من لغات (لهجات) القبائل التي تحتك بها وتخالطها شيئاً من لغتها، وبالمقابل فإن العربية قدّمت للشعوب والأمم التي دخلها المسلمون في عصر الفتوحات لغتها، وأخذت من لغات تلك الشعوب، والدليل على ذلك أننا نجد لكلمة (السيف) عشرات الألفاظ والصفات، وكذلك لكلمة (الأسد) وغيرهما من الألفاظ، وهذه الكثرة لا تخلو من دخيل أو معرّب.

ويبقى القرآن الكريم هو كتاب العرب الأول، فهمه أقحاح العرب، ولم ينكروا شيئاً منه، ولم يجهله أحد منهم، فيسألْ غيره عن معناه.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه لكان الإمساك أولى به، فقد قال قائل منهم: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل أنه ليس في كتاب الله شيئ إلاّ بلسان العرب).

وقال الإمام الزركشي: (إعلم أن القرآن أنزله الله بلغة العرب، فلا تجوز قراءته إلاّ بها، لقوله تعالى: ((إنّا أنزلْناهُ قُرْآناً عَربياً)). وقوله: ((ولو جَعَلْناهُ قُرْآناً أعجَميّا..). وهذا يدل على أنه ليس فيه غير عربي، لأن الله جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العربَ العرباء به، ويحاضرَ البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة).

ولو لم تكن تلك الكلمات القليلة المستعربة في القرآن مألوفة ومتداولة بين العرب حين نزل القرآن الكريم، لوجد فيها المشركون وأعداء الرسالة الجديدة مطعناً للتشكيك في مصداقية القرآن الكريم الذي نزلت فيه آية ((إنَّا أنزلناهُ قُرآناً عربياً لَعَلكُمْ

تَعْقِـلُونَ)) ولقالوا: إن فيه كلمات غيرُ عربية، ولاَجتهدوا في البحث عن أصولِ كل كلمة غير عـربية فيه، لتكذيب رسول الله ﷺ، وهم أهل البلاغة والبيان والفصاحة، وإليهم تُشَدُّ الرحال لحَـلِّ عويص الشعر، ومعاني الحِكَمِ، والمسائل اللغوية النادرة!!

الدخيل والمعرّب في اللغة

تحـدَّث اللغويون عن الدخيل إلى لغتنا العـربية فقـالوا: (الدخيل: هو اللفظ الأجنبي الـذي دخـل العربية دون تغيير، والفرق بينه وبيـن المعرَّب أن المعرَّب قد غيّر صيغته في الغالب بالزيادة أو النقص، أو بتغيير الحركات، وأدخلوه في لغتهم).

وقـالوا عـن المعرَّب: (المعرّب: لفظ مفترض من اللغات الأجنبية، وُضع في الصيغ والقوالب العربية).

وقال الجوهري في الصحاح: (وتعريب الاسـم الأعجمـي أن تـتفوّه بـه العرب على منهاجها).

والمنهاج في اللغة: هو الطريق الذي يخـتاره الإنسـان للوصـول إلى هدفه، فلولا الحاجـة والضرورة ما استعمل أحد لغة غيره، أو مصطلحات غيره.

يقـول الإمـام السيوطي: (وأقوى ما رأيـته لـلوقوع – وهو اختياري – ما أخرجه ابـن جرير عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: (في القرآن من كل لسان).

ولعـل أبا ميسرة يقصد ألسنة العرب فـي قبائـلهم المتناثرة، أو الأقوام والأمم التي تحيط ببلاد العرب حينَ نزول القرآن.

ويقـول أيضاً: (والقرآن احتوى على جميـع لغات العرب، وأُنزل فيه بلغات غيرهم، من الروم والفرس والحبشة شيء كثير).

ويقول في مكان آخر: (في القرآن من الـلغات خمسـون لغـة: لغـة قريش وهذيل وكـنانة.. ومـن غير العربية الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط)

ومـن يقـرأ كتابه (الإتقان في علوم القـرآن) يجـد قوائـم طويلة من لغات هؤلاء الأقـوام والأمـم في القرآنِ الكريمِ الذي جاء وصفه فيه: ((إنَّا أنزَلناهُ قُرْآناً عَرَبياً))

وجـاء الزركشـي المعاصر للسيوطي فجـاء بمـثل ما جاء به سلفه فيما يتعلق في الكلمات الأعجمية والمعرَّبة.

مـن هنا ندرك أن اللغة العربية قبلت الدخيل والمعرّب منذ ما قبل الإسلام، فقد قبلت كلمات كثيرة وافدة إليها فاستعملتها، وصهرتها في بيئتها، ونطقت بها فّي لغتها، ولم ينكر أحد ذلـك البتة، بل رأينا هذه الكلمات القليلة تدفع اللغة العربية نحو الأفضل في النطق والإنشاء، والحديـث والمسامرة، فقد استعملها الشعراء فـي الجاهـلية، وأدخـلوها فـي قصـائدهم، وتداولوها في منتدياتهم وأسواقهم.

الثقافة العربية.. الفارسية

لـم تشـهد اللغة العربية أخذاً وعطاءً مـنْ وإلى لغـة أُخـرى كما شهدته مع اللغة الفارسية، سواء قبل الإسلام أو بعده، فقد كان للـتجاور دور بارز في ذلك، كما كان للعلاقات الوطيـدة بين الأُمَّتَينِ شأن كبير، وقد أثمر هذا التواصل والتثاقف إلى مزج الثقافتين بالصبغة الإسلامية، ونقلها عن لغتيها إلى معظم اللغات الأخـرى، حتى شهدنا عدداً كبيراً من العلماء الذيـن خلقوا في فارس وعاشوا فيها، وكتبوا مؤلفـاتهم بالـلغة العربية ينحدرون من أصل عربي.

واسـتمرت هـذه المؤآخـاة العربية الفارسـية قروناً، لا تكدّرها شائبة، ولكنّها في القـرن العشـرين فـترت بسـبب الظـروف السياسـية، وبسبب الاستعمار الذي أدار وجه

العرب نحو أوروبا المتطورة علمياً وصناعياً، كما أدار وجه الفرس لنفس السبب، وبسبب العداء الذي نشب بين العرب والفرس نحو إقليم عربستان الذي ضمّته إيران إلى أراضيها بالقوة، وضم الجزر العربية الأربع إليها، وسوء إدارة أسرة بهلوي البائدة نحو العرب وارتمائها في أحضان الغرب.

إن السائح العربي لا يحتاج إلى ترجمان في الشارع الإيراني، لكثرة المفردات العربية في اللغة الإيرانية، والتي قد تصل إلى ستين من مئة من اللغة الفارسية، ولتعميم اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، فجاءت المؤلفات الفارسية مطرّزة بالحرف العربي، ويأتي في مقدمتها دواوين الشيرازيَين حافظ وسعدي، وشاهنامة الفردوسي، هذا الكتاب الذي يعتز به الفرس أيّما اعتزاز، وقد ضمّنه مؤلفه مئات الكلمات العربية رغم أن الفردوسي أراد في كتاباته تخليد لغة فارس وتاريخها.

يقول الباحث العراقي إبراهيم السامرائي: (ألم يأتنا نبأ الشاعر الفردوسي الذي عاش في حقبة شعَر فيها الفرس أن يعودوا إلى أمجادهم التي زعموا أن الإسلام قد قضى عليها، فنظم ملحمته (الشاهنامة) لهذا الغرض، ثم عاد ليرى ما فيها من العربية التي اجتهد أن يستبعدها من صنعته ما وسعه ذلك، فكان أن وجد فيها صنع مئآت عدّة من الألفاظ العربية، فسخط وصرخ قائلاً: (تُفْ عليكَ أيها الفلكُ الدوّارُ).

وهذا ما جعل الفردوسي يصاب بخيبة أمل من تنقية اللغة الفارسية من العربية التي تأصلت فيها، وأفقدتها البديل عنها، فذهبت اللغة الفارسية المسمارية القديمة هباء تذروها الرياح أمام عمق اللغة العربية وبلاغتها التي حمل مشعلها سيبويه الفارسي والخليل بن أحمد الفراهيدي العربي، وأضاء إعجازها عبد القادر الجرجاني في كتابيه (أسرار العربية و دلائل الإعجاز) وملأ مؤلفاته بها الإمام الغزالي رحمه الله.

ولم يقف التثاقف العربي الفارسي عند اللغة، بل زحف إلى سائر أبواب الفكر والمعرفة، والعلوم التجريبية، والحديث والتفسير والفقه، فكان الغزالي والرازي وأضرابهما في كل مدينة فارسية يكتبون باللغة العربية، ويتثقفون بثقافتها الواسعة، مما جعل الثقافتين تكادان أن تكونا ثقافة واحدة، وتخرج من مشكاة واحدة.

وليس من الركاكة في شيء أن يضمّن كاتب أو شاعر عربي كتاباته بعض الكلمات الفارسية الأصل، طالما أن هذه الكلمات دخلت العربية وعُرِّبت، وتداولتها أقلام العلماء وألسنتهم، ودخلت قواميس لغتهم، ولا يضير العربي ما دخلها من لغة فارس، طالما أنها اقتبست من اللغات الأخرى ما يزيد نطقها وضوحاً، وبلاغتها شمولية، حين نزل القرآن الكريم وفيه كثير من الكلمات الأعجمية المتعرّبة من فارسية، وسريانية، ونبطية، وزنجية، ويونانية، ورومية وقبطية ومغربية قديمة (بربرية)، ويبقى كتابا (الإتقان في علم القرآن) للسيوطي و (البرهان في علوم القرآن) للزركشي خير شاهدين لقبول اللغة العربية شيئاً من اللغات الأخرى.

وما أكثر الكلمات الفارسية التي عُرِّبت ودخلت معاجم اللغة العربية، بل أصبحت عربية يكتب بها الأدباء والعلماء والشعراء، وخاصة أسماء الأدوات والآلات، وأسماء النبات والحيوان.

لقد تعقب الدكتور إبراهيم السامرائي الكلمات الفارسية التي عُرِّبت فدخلت المعاجم وهي: (المعرّب) لابن الجواليقي، و (المعيار) للميرزا محمد علي الشيرازي، و(الألفاظ الفارسية المعرّبة) لأدّي شير، فبلغ عددها (٣١) كلمة، بينما ذكر أن الفرس أخذوا عن العربية (١٤٢٩) كلمة عربية تنطق بالفكر

والمعرفة والثقافة والمعارف العامة من أدب وفن وفلسفة، وما يتصل بعامة علوم الإسلام ولم يقتصروا على هذا كله، بل تجاوزوه إلى ألفاظ تتصل بالحياة العامة).

وقد لعبت الترجمة دوراً بارزاً في نقل العديد من الكتب الفارسية إلى العربية، وخاصة الكتب التي عُنيت بالأدب والحكمة والتاريخ، وكان أشهر المترجمين جبلة بن سالم وعبد الله بن المقفع، وغيرهما ممن نجهل أسماءهم، لكننا بعد سقوط بغداد لم نجد تلك النظرة الجدية للأدب الفارسي، وحتى في العصر الحديث نجد شبه غياب للأدب الفارسي في المكتبات العربية.

الثقافة العربية.. والتركية

بقيت الثقافة التركية أربعة قرون في البلاد العربية ثقافة من الدرجة الثانية رغم أن الأتراك حكموا أغلب الوطن العربي، واستطاع الأتراك أن يبسطوا نفوذهم في ثلاث قارات، ورغم هذه المدة الطويلة لم تدخل العربية أكثر من مائة كلمة تركية. بعضها دخل المعاجم، وبعضها انقرض قبل أن يعرَّب، علماً أن بعض تلك المفردات انحدرت من أصل فارسي، أخذها الأتراك عنهم ونقلوها إلى العرب وغيرِهم في دولة الخلافة. وهذه الكلمات القليلة لا تُذكر إذا ما قيست إلى المدة الطويلة التي حكم خلالها الأتراكُ العربَ، لكننا حين نبحث في القواميس التركية نجد أن الحرف العربي بقي قروناً في هذه الدولة هو الحرف الرسمي للدولة والسلطان نفسه، وأن اللغة التركية كانت متقهقرة في مهدها، لكن الكارثة وقعت في تركيا حين قام مصطفى كمال أتاتورك بانقلابه العسكري فقذف بالحرف العربي بعيداً، وأنهى العمل بالشريعة الإسلامية، ومنع التقاليد الشعبية في اللباس والزي للمرأة والرجل، وجاء بالحرف اللاتيني فمسخ به دولته التي أصبحت عالةً على الغرب، ترتبط به، وتعيش على بقايا فضلاته، رغم أن الأتراك من المسلمين الذي لا يرضون بكل ما جاء به الانقلابيون العلمانيون، وكانت النتيجة أن دخلت العربيةُ بمفرداتها الغزيرة إلى قواميس اللغة التركية بكثرة كاثرة إذا بلغت (٤٤٧٦) كلمة.

فهل يضير اللغة العربية أن دخلتها كلمات غير عربية قبل الإسلام فاستعربت وانصهرت في العربية ثم نزل القرآن الكريم فنالت شرف التنزيل كغيرها، بينما ننسى (أن الدخيل في الفارسية والتركية ثروةٌ كبيرة لا يمكن أن نوازنها بما في العربية من كَلِم قديم ورد في لغة التنزيلِ وغيرها، وما ورد في الألسن الدارجة مستعاراً من هاتين اللغتين!!)

من هنا تبرز عبقرية اللغة العربية التي تتثاقف مع غيرها فتعطي الكثير، وتغني المستعير منها بلا حساب، بينما تأخذ من غيرها ما تسدُّ به رمقها عند الحاجة.

التثاقف العربي.. الأوروبي

كان للعرب دور كبير في الثقافة الأوروبية في القرون الوسطى، التي كانت تتخبط خلالها أوروبا، بينما كان العرب يعيشون عصورهم الذهبية في كافة مرافق الحياة.

وكانت الأندلس بوّابة أوروبا التي دخل منها العرب، ومنها عبرت جحافل الحضارة العربية، تحمل مشعل الفكر والثقافة والمعرفة، لتنير الطريق لغيرها كما أنارته للعرب في وطنهم الكبير، ونعمت الأندلس بهذه النهضة الفكرية التي لم تعهد مثلها من قبل، فبلغت القمة في عصرها الإسلامي ومدَّت ذراعها إلى سائر الممالك الأوروبية لتقدم لهم جهود العرب في نشر الثقافة اليونانية والفارسية والهندية، وقد أخرجوها بقالب

عربي يُحسدون عليه فتأثرت أوروبا بذلك، لكن الدولة التي كان لها قصب السبق في الأخذ عن العرب والعربية بعد الأندلس هي فرنسا، إذ دخلت المفردات العربية في المعاجم الفرنسية، واستطاع الفرنسيون أن يشتقوا للكلمة العربية الواحدة عشرات الكلمات التي أغنوا بها لغتهم، وخاصة تلك الكلمات التي تتعلق بالطعام والشراب والدواء والفلك، وأن يعيدوا إلينا كلماتهم المتفرنسة من أصل عربي في ثوب جديد، فتدخل حياتنا اليومية وكأنها فرنسية الأصل، غربيّة المنبت، نتداولها في نوادينا، ونقرأها في معاجمنا على أنها غربيةٌ غريبةٌ عنا، وهي في الأصل من بنات الضاد المهاجر من وطنه، والعائد إليه في لسان آخر، أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الكحول، المومياء، الليلك، اللوغاريتم..

لقد دخلت المعاجمَ الفرنسية (٧٩٥) كلمة عربية، بينما لم تدخل معاجمنا العربية (١٠٠) كلمة فرنسية، ومع ذلك نشكو ونتذمر من الاستعمار الفرنسي الذي جثم فوق أراضي سورية ربع قرن، بينما جثم فوق الجزائر قرناً وثلث قرن.

ودخلت عشرات بل مئآت المفردات العربية في كل من اللغات الإيطالية والألمانية والإنكليزية والبرتغالية والإسبانية والصقلية، ولا تزال هذه الكلمات في معاجمهم، أو على واجهات قصورهم، أو في شاهدات قبورهم تنطق بالحرف العربي، ومَن يقرأ كتاب (العربية المهاجرة) سيجد لغتنا العربية فيه طيارةً، تنتقل سريعاً إلى اللغات الأخرى، والشعوب القريبة والبعيدة، وأن تراثنا العربي حين ينتقلَ من وطنه يُقابَلُ بالترحاب، ويُعانَق بالأحضان لغناهُ وثروته في كل جانب، لكنه على حين غرّة نُقِلَ قسراً إلى أوروبا، وسُجن في رفوف وخزائن كتبها حين تسللت الإرساليات المنظمة، والبعثات المتخصصة، والمؤسسات الدينية التي يشرف عليها ملوك أوروبا منذ نحو ألف عام، ليستفيدَ الغرب من عصارته، ويشربَ من ماء حياته الذي نضب أو كاد في موطنه، لظروف سياسية واجتماعية قاهرة، ولتبني أوروبا على مضمونه نهضتها وثورتها الفكرية والثقافية والعلمية، وأصبحت المخطوطات العربية ذخائر رائعة، تنطق بالحياة، وتنعم بالأمن والحماية في مكتبات الفاتيكان وروما ولندن وباريس ومدريد وميونيخ وموسكو وغيرها.. وأصبح من المستحيل نقلُها وإعادتها إلى موطنها الأصلي، أو حتى تصويرَها للاستفادة منها بالنسبة للباحث العربي الذي يريد إحياء ونشر إرثه الثقافي الذي خلّفه له أجداده ففقَدَهُ، وأصبح من ممتلكات غيره.

وبعد انتقال هذا التراث الرائع، وتقديرِ الغرب لمحتواه، افتتح الجامعات العربية في بلاده، وانهمك في ترجمة تلك المخطوطات، وتحقيقها، ونشرها في لغته ولغتها (وما تصرّم القرن الخامس عشر حتى بلغٍ عدد الجامعات في إسبانيا ست عشرة جامعة تعلّم العربية.

وكانت في القرن الحادي عشر الميلادي قد أُنشئت جامعة (سالرنو) في إيطاليا، فسيطر عليها الفكر العربي مدة قرنين، وقامت بعد ذلك جامعة (بالرمو) وجامعة (مون بلييه) ثم جامعة (باريس) وبولونيا وأوكسفورد وبادو وغيرُها، وكلها كانت تدرّس العربية، فأوجدت في الغرب ثورة فكرية هائلة، كانت هي الأساس في يقظة الفكر الأوروبي الذي عمّ العالم.

ويذكر مؤلف كتاب (العربية المهاجرة) أن ملوك أوروبا كانوا حريصين على معرفة العربية وتعليمها ونشرها، فالملك روجيه الثاني ملك صقلية (١١٠١- ١١٥٤م) كانٍ مثقفاً ثقافة عربية، واستدعى إلى بلاطه عدداً من علماء المسلمين.

وجاء بعده غليوم الأول فجعل من اللغة العربية لغة رسمية في بلاطه. وكذلك

كان غليوم الثاني (١١٦٦- ١١٨٩).

وألفونس الثالث أمير قشتالة (١١٥٨ - ١٢١٤) جمع إليه عدداً من المترجمين العرب، وفريقاً من الفرنج العارفين بالعربية، فترجموا له ما يزيد عن ثلاثمائة مخطوطة.

وأمير النمسا فريدريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م) الذي وهب لجامعة بولونيا كثيراً من المخطوطات العربية، وكان حريصاً على تعليم العربية فيها في جميع الفروع.

وأنشأ ملوك فرنسا وإسبانيا معاهد لتعليم العربية منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي.

واهتم بابوات أوروبا باللغة العربية دراسة وتدريساً، ولتيسير نشر اللغة العربية أنشأ البابا لاون العاشر سنة (١٥١٤م) أول مطبعة عربية، وهي المطبعة التي كان سلفه يوليوس الثاني قد أسسها في مدينة خانو على ساحل بحر الأدرياتيك.

لا بدع إذاً أن تكون لغات أوروبا قد انبثت فيها الألفاظ العربية، ودخلت في معجماتها، وصارت جزءاً منها. وهذا ما يجعل الفكر العربي يرفع رأسه اعتزازاً لتنوير الأفكار الأخرى التي استطاعت أن تأخذ منه ما تستفيد منها وما يناسبها، فتأخذ من هذا الجديد الوافد، وتفعّله، وتطوِّرُه، وتستفيدُ منه كحجر أساس في مرتكزات النهضة الأوروبية.

وتأتي المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة بكتابها الرائع (شمس العرب تسطع على الغرب) فتجعل افتتاحية كتابها تلك الكلمات العربية التي يستعملها الألمان في حياتهم اليومية، وفي مدارسهم وجامعاتهم، ومختبراتهم ومراكز أبحاثهم العلمية، وتشهد بحق الثقافة العربية أنها كانت صاحبةَ السبق في النهضة الأوروبية، وأنها قدّمت لأوروبا فأفادتها أكثر مما استفادت منها فيما بعد، وتشير هذه المستشرقة المنصفة أن العلوم العربية التي انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأندلس هي التي أرست صرح النهضة الأوروبية، وأن اللغة العربية دخلت معاجم اللغات الأوروبية جميعَها منذ قرون خلت.

أما في القرون المتأخرة فإن النهضة الأوروبية غمرت العالم بأسره، بينما تراجعت الثقافة العربية، وعاشت عصر الخمول والصمت، لانبهارها بالحضارة الغربية، بل نجدها في النصف الثاني من القرن العشرين تتحرك نحو الأفضل فتكثر على طول الشارع العربي البعثات العلمية المختلفة للدراسة في الجامعات والأكاديميات الأوروبية والأمريكية، بل نجد لأسباب اجتماعية وسياسية في الوطن العربي هجرةَ الأدمغة العربية وازدهارِها، وتراجعَ الثقافة العربية، وحركتَها الفكرية خطوات إلى الوراء، الأمر الذي جعل العرب يخوضون في أوحال التخلّف والجري خلف (سراب) الدول المتقدمة في كل شيء للتخلص من أدران التخلف والجهل، مما جعل الثقافة الغربية تغزو العربية في عقر دارها، فدخلت جميعُ المصطلحات العلمية الغربية حديثاً، معاجم اللغة العربية، وراحت مجامع اللغة العربية تبذل جهوداً لتعريب الوافد، والبحث عن بديله في موروثنا اللغوي لحمايته من التصدع والانهيار، كما يزعم المحافظون المتعصبون.

وظهرت معاجم حديثة لم تكن معروفة في العربية من قبل مثل: المعاجم الطبية المختلفة، والهندسية، والمصطلحات الالكترونية، والدراسات الفضائية المترجمة، والمؤلفات التي تعالج البيئة، والتلوث، والتصحر، والاستمطار والاستشعار عن بُعد، والتصوير الجيولوجي الفضائي وغيرُ ذلك مما انفرد به الغرب في نهضته، لكن علومه زحفت إلى غيره جافة من غير تفعيل أو ممارسة، فأصبحت نظرية جامدة في البلاد العربية، بينما تنطق بالحياة في بلاد الغرب.

إن الاحتكاك مع الآخر يؤدي إلى التثاقف، وهذا ما يجعل الأمم المتثاقفة تنطق بالحياة، لتدوم لها الحياة.




يا زهرة القلب

شعر: وداد عبد النور

مـــن أيِّ بَـــدْرٍ جئْتِـــنا يـــا زهـــرةَ القـــلب الـــنديَّةْ؟

يـــا طفـــلةً فُرِشَـــتْ لهـــا الأكـــبادُ والمِهَـــجُ الوفيَّـــة

هـــلْ أنـــت مـــن سُـــرْبِ الملائِـــكِ فـــي المـــداراتِ القصـــيَّة؟

أمْ مهـــرجانٍ مـــنْ أفـــانينِ الملاحـــاتِ الســـنيَّةْ؟

لوَّنْـــتِ صـــفحةَ عُمـــريَ بالبِشْـــرِ والـــنِعَمِ الســـخيَّة

وســـكَنْتِ نـــبضَ جوارحـــي وأعَـــدْتِ للقـــلبِ الهويَّـــة

ولْـــهى ألُـــوذُ بمـــنجمِ الفيـــروزِ فـــي المُقَـــلِ الذكيَّـــة

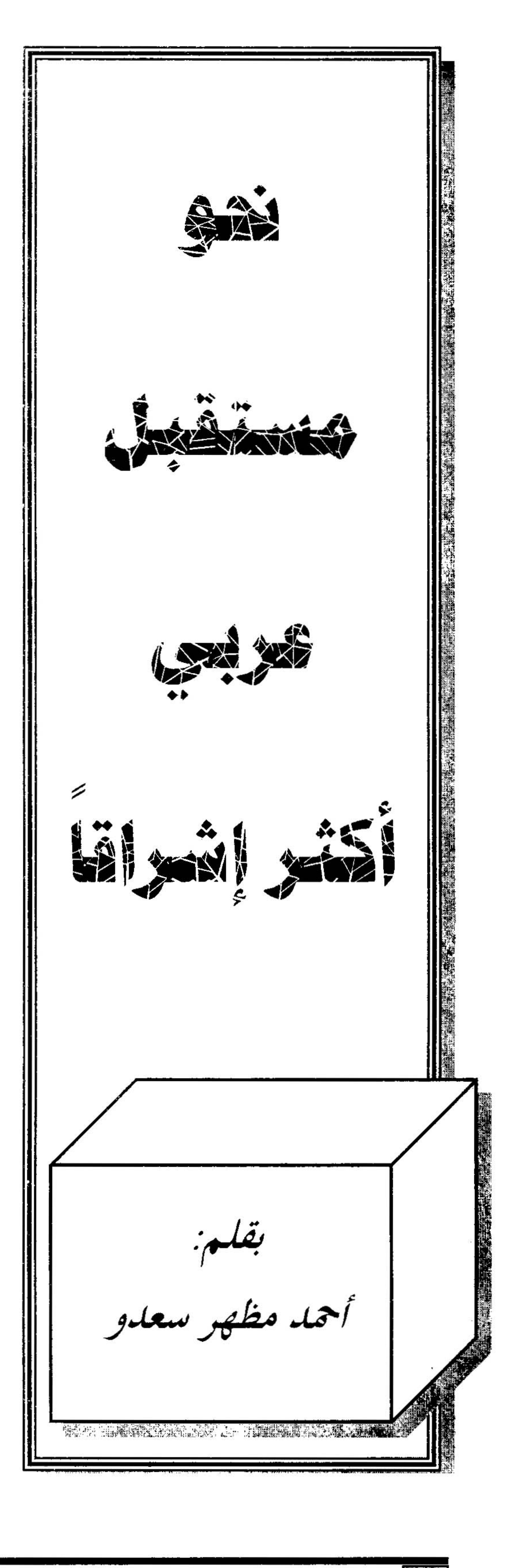
بســـبائِكِ الذهـــبِ المدلَّـــلِ فـــوق جبهـــتِها الـــنقيَّة

قمـــرٌ يطـــوفُ بخاطـــري مـــنذُ الصـــباحِ إلى العشـــيَّة

عمـــري وقلـــبي والهـــوى فِـــدىً لعيـــنيك هَديَّـــة

أهـــلاً بمـــنحةِ خـــالقٍ جَـــلَّ العطـــاءُ كمـــا العطيَّـــة



بعد انقضاء كل هذه الفترة على انهيار الاتحاد السوفيتي، وبعد أن أفلت الحرب الباردة واستفردت الولايات المتحدة الأميركية بالعالم أجمع، فراحت ترسم خرائط جديد وقزمة لعالم تريده هي تحت السيطرة، ورهن الانقياد، بعد كل ذلك وهذه الانهيارات الكبرى، كان لا بد من مراجعة نقدية للواقع العربي ضمن المتغيرات العالمية بآفاقٍ لمستقبل عربي أكثر إشراقاً، ومن هنا يمكن القول أنه..

ليست الاشتراكية التي انهزمت أو انهارت، وإنما نمط معين من البناء والعمل الاشتراكي، قد ثبت فشله على الصعيد العملي، حيث أقام نظام رأسمالية الدولة، ولم يترك للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية أن تتطور على صعيد المجتمع بشكل موضوعي في الاتجاه الاشتراكي، فالنمط غير الديمقراطي الذي سارت على أساسه الكتلة الاشتراكية قد تفوق النظام الآخر عليه دون أن يعني ذلك أن ذاك النظام الآخر (الرأسمالي) لم يعد السبب الأساسي لمصائب البشرية، وكل المآخذ التي كانت عليه يوماً ما تزال قائمة، وتعاني منها الإنسانية جمعاء في العراق وكوسوف وسواهما، وإذا كانت (المركزية الديمقراطية) إحدى المبادئ التي ساهمت في فشل النمط الاشتراكي فهي ليست بالضرورة المشجب الذي يعلق عليه كل شيء، فحركة التطور الإنساني اليوم تطرح الطريق الديمقراطي

طريق الثورة القومية الديمقراطية في مواجهة أزمات النظام الرأسمالي، وما أتى به من كوارث على العالم، وكذلك من مواجهة المشاكل الاجتماعية التي تولدت عنه فهي تطرح ضرورة فكر إشتراكي جديد يختلف بأدواته عن كل الأدوات والأنظمة كالتي قامت في أوربا الشرقية والاتحاد السوفياتي.

كما يتميز عن المحاولات التي حاولت أن تحاكي (تجربة الاتحاد السوفيتي) في العالم الثالث فاتخذت شكلاً (صوريا) بدون أن تملك حتى المقومات التي ملكتها دول أوربا الشرقية. فتوقفت عند مرحلة ما قبل هذه المجتمعات الديمقراطية والمجتمعات البرجوازية والرأسمالية. إن سقوط الأنظمة الاشتراكية في حلبة الصراع مع النظام الرأسمالي لا يلغي مطلقاً المنجزات العظيمة التي أعطتها الثورة البلشفية، وثورة الصين، كما أنه لا ينهي بالضرورة كل المبادئ والمفاهيم التي جاءت بها هذه التجارب بقدر ما يحفز على تطويرها وتجاوز تطبيقاتها بما يخدم المصالح الحيوية للبشر، على أسس ديمقراطية منفتحة، ديمقراطية كل الشعب، من يغر أن تكون محكومة بديمقراطية رأسمالية يسود فيها المال بسلطته وتحكمه.

إن القوى السياسية التي أمسكت بالتجربة الاشتراكية ممثلة بالأحزاب الشيوعية لتفرض نفسها في قمة السلطة فاعتبرت ذاتها ممثلة للقوى الاجتماعية، العمال والفلاحين؟ وقدمت ديكتاتوريتها باسم هذه القوى، قد عمدت إلى ذلك لأنها لم تنجز الثورة الديمقراطية كثورة ليبرالية تقيم علاقات، وتحقق فعلياً الوجود الشعبي، والإرادات والمصالح الشعبية فتحولت إلى سلطات بدل أن تتحول إلى نظام ادعت أنها جاءت لتنجزه (النظام الاجتماعي الاشتراكي الديمقراطي)

إن أية محاولة للعبور نحو المستقبل اليوم لا بد لها من مراجعة واسعة للنفس، ومن تخل عن الصياغات الستالينية المتجمدة التي شكلت، مجتمعة، جملة من الأسباب التي فعلت سلباً بحركة التحرر العالمي، والعربي

فمراجعة جدية وصادقة كفيلة أن تدفع بالعمل نحو الأمام وأن تتجاوز الرؤوس التي علاها الصدأ منذ أمد، ولم تعد قادرة على التغير أو قيادة الآخرين، وليس عيباً ولا معيقاً لأي عمل سياسي منظم أن يسمح لكل فرد مهما افترق برأيه عن الآخرين، أن يعبر عن رأيه بصوت عال، ولا يصح في النتيجة إلاّ الصحيح، فتعدد الآراء يغني ولا يفقر، يدعم ولا يهدد.

إن نظرة استقصائية سريعة للبنية التنظيمية للأحزاب الشيوعية العربية وحتى التي تسمي نفسها بالعمالية، تجعلنا نخرج بنتيجة مفادها: إن العمال هم أبعد ما يكون عن هذه الأحزاب (إلاّ ما رحم ربي) هذا إذا اعتبرنا

أن هناك تبلوراً طبيقاً ما، ضمن التركيبة المجتمعية العربية، فالتجارب الاشتراكية العالمية التي جاءت باسم (ديكتاتورية البروليتاريا) هي نماذج مضت وجاءت في ظروف تاريخية، وضمن خصوصية مجتمعية تختلف عن خصوصية واقعنا العربي، كما أنه قد توضح اليوم وبعد كل ما حصل من متغيرات عالمية أن هناك معطيات فكرية وسياسية جديدة، وتشهد السنوات الأخيرة انطلاقات جديدة بالفكر الإنساني الديمقراطي العالمي ومحاولات عديدة لاستيعاب متغيرات العصر بدءاً من نقد الظروف والعوامل والإيديولوجيات التي تسلب حرية البشر وتقديهم وانتهاء بنقد سيطرة طبقة ما أية طبقة مهما علا شأنها على سائر طبقات وشرائح المجتمع وباتجاه الانفتاح على قطاعات واسعة من الناس تتلاقى مصالحهم وعلاقاتهم على أرضية واحدة ويتطلعون نحو أهداف واحدة أو متقاربة ليشكلوا تلك الكتلة التاريخية العريضة وذلك التحالف الشعبي الكبير (تحالف قوى الشعب العامل) كما طرحها يوماً جمال عبد الناصر، ضمن القبول بالتعددية التي أصبحت اليوم وأكثر من أي وقت مضى ضرورة ومخرجاً (أن تحالف هذه القوى الممثلة للشعب العامل هو البديل الشرعي لتحالف الإقطاع مع رأس المال المستغل وهو القادر على إحلال الديمقراطية السليمة محل ديمقراطية الرجعية) وعندما تتكون القوى والأحزاب على أساس هذا التحالف تتحقق الوحدة الوطنية داخل الحزب ليمثل كل الفئات الكادحة كأغلبية حقيقية تعبر عن الشارع بصدق، فتعيد بناء صياغاتها وبرامج عملها وهي تبني قاعدتها الاجتماعية والسياسية وحلفها الطبقي التاريخي (تحالف قوى الشعب العامل) ومن أجل ذلك الوفاق التاريخي الذي يظل الجميع وعلى أساس القبول بالآخر مهما كان الاختلاف معه.

إن القوى التي مازالت ترفض مبدأ تعدد الآراء وليس بالضرورة أن تتشكل هذه الآراء كمنابر مستقلة عن بعضها، تعاني ضعفاً بنيوياً لإشفاء هذه، وهي قاصرة عن مجابهة التحديات الداخلية والخارجية، ولذلك فإن مطلب التحول إلى الديقراطية المنعتقة من كل القيود – في هذه المرحلة – أصبح مطلباً مصيرياً، وهو يطالب الجميع بالعودة بزواتهم إلى ساحة العمل الديمقراطي الحقيقي وبناء مؤسساته على أسس ديمقراطية محققة لآماله، ومقنعة بأن تعدد الآراء لا يفكك البنية الحزبية بل يزيدها تماسكاً بنيوياً لا ظاهرياً.

إن انسداد المداخل الديمقراطية للتغيير لدى بعض القوى هو إنسداد لكل طريق للنهوض الوطني والقومي وتلك القسرية الطويلة الأمد، ترد وبالتأكيد إلى مواقع وروابط وعصبيات ما قبل وطنية وقومية وتتهدد بردود

فوضوية وإرهابية وبتمزقات داخلية، وتظل هذه القصرية بما تشكله في النفوس متوعدة ومعلقة تنتظر نقطة الضعف لتنفيذ منها ما دام هناك انسداد في وجه التغير الديمقراطي وما طال هذا الانسداد.

إن النهج القومي الديمقراطي في التفكير والممارسة دفعا على طريق التحرر والوحدة وإقامة الكيان الموحد للأمة كدولة موحدة، ودولة حق وقانون حديثة، والمشروع الحضاري للنهوض، والتقدم، والمهمات التي تطرح من خلالهما ما تبقى مآل الأمة للخروج من عثارها، ولتحرير قوى الأمة وإطلاق إرادتها الحرية ومبادراتها من داخلها ولن تكون التوجهات القمعية الحابسة لإرادة البشر، وحريتهم، سوى إضافة لذلك العثار الذي نعيش.

إن ما يطرح نفسه اليوم وبإلحاح شديد هو مسألة الوحدة الوطنية الديمقراطية وصولاً إلى الجبهة العريضة، وعلى الجميع أن يسعى لإيجاد الإطار الناظم للقوى الوطنية الديمقراطية منطلقاً من اعتبار ذاتي مؤداه: إنه فصيل من فصائل قوى الثورة القومية الديمقراطية وليس ممثلاً لكل الشعب إذا لم يعد أحد يملك هذه الميزة ولم يملكها في السابق أحد قط، وأن الجبهة الوطنية الموحدة مقدمة لا بد منها للجبهة القومية العريضة، وأن مسألة الوحدة القومية مسألة راهنة ومباشرة ولا تحتمل التأجيل، بغض النظر عن الصياغات المطروحة، وهذا يطرح نفسه اليوم بمراجعة لتجربة الماضي، ورسم خطة عمل للمستقبل واختيار قيادات تتوافق ومتغيرات الواقع العربي الراهن وتستوعب متغيرات العالم التي حصلت لتستطيع مواكبة العمل بأفق جديد يعترف بالآخر وينفتح عليه، فأي نهج اليوم يجب أن يؤلف بين حركة القوى والطلائع القومية والثقافية والسياسية والمبعثرة هنا وهناك والتي تسعى إلى أهداف مشتركة وطنية وقومية وديمقراطية تتحالف وتنتظم وتلتقي كأجزاء لكل يراد له أن يستكمل، ولا بد من أن يعرف كل جزء حدود إمكاناته وكيف يوظف هذه الإمكانات وكيف ينميها وكيف يبتكر أساليب جديدة لمواجهة العقبات التي تعترض السبيل للخروج من هذا الوضع الذي نحن فيه حيث الكل مسؤول فيه بقدر.

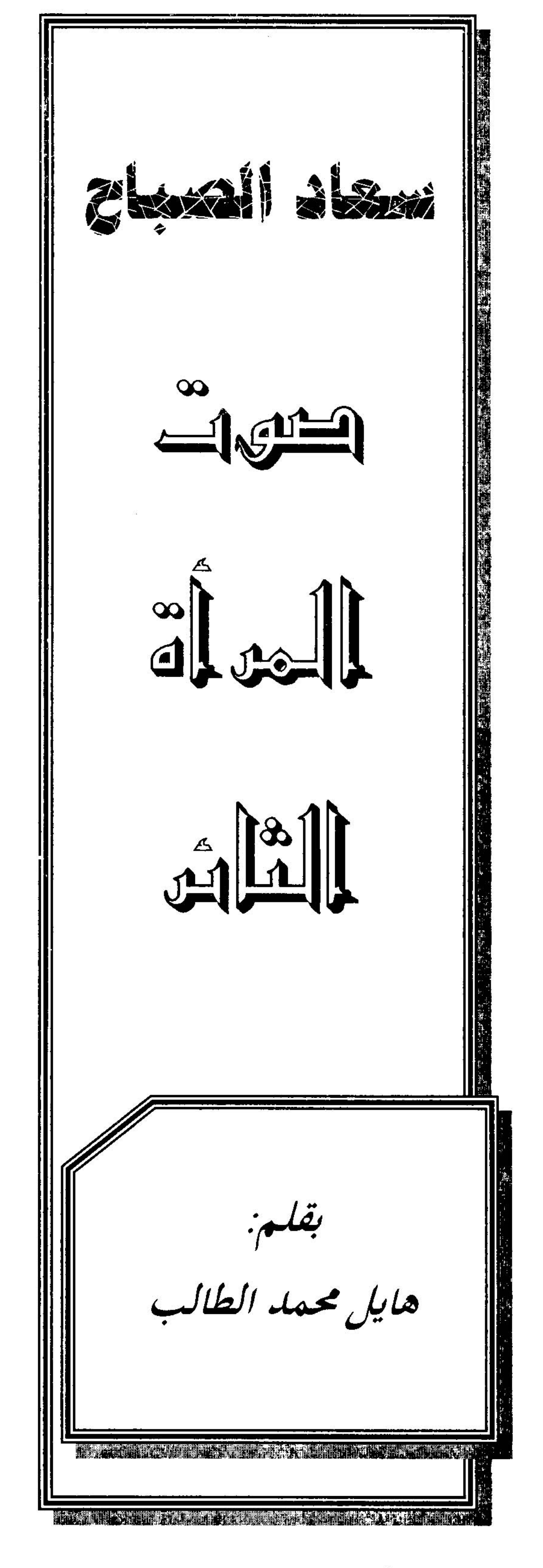
وإذا كان المطلوب على الصعيد الإيديولوجي أن تميز قوى الأمة الحية نفسها بديمقراطيتها وبالالتزام بأهداف الثورة القومية الديمقراطية الوحدوية، فإن معركتها الإيديولوجية المشتركة التي يجب أن تخوضها، هي مع تلك الإيديولوجية التي تحاول بسط هيمنتها المطلقة والتي يمكن تسميتها بالإيديولوجية المحافظة، ومعركتها معها ليس في أنها إيديولوجيا للفئة المسيطرة تاريخياً فحسب، بل لأنها تزيف أهداف وشعارات التقدم

وتسلخها من مضامينها، لنزع ثقة الجماهير بهــا، وتطلعها إليها، وهي بالتالي تزيف حركة المجـتمع والــتاريخ، وتعطــي رصيداً لقوى الــرجعة والتطــلع إلى الــوراء، وبهذا تصبح الخصــم الأول أمــام حــركة التغيير، وليست الإيديولوجيــة الرجعية التي لا تنعش إلاَّ بفعلها وبتعطيــلها لكــل فــرد ديمقــراطي وممارسة ديمقراطية.

إن العمــل الفعــلي المطــلوب لخــلع إيديولوجيــة تلك الفئة المتسلطة على رؤوس القواعــد الشــعبية، الإيديولوجيــة المــلفقة والمجردة بشكل يطابق التلفيق في تركيب تلك الفئات التي نمت يوماً وتسلقت بشكل طفيلي، وتحــت اعتــبارات شــتى، وإن كشفها في كل موقــع والتصــدي لها في كل مكان وكشف ما تغطيــه من مصالح وارتباطات، مطلب أساسي لــتأكيد خــط التقدم ولإعادة ثقة جماهير الأمة بأهدافهــا والمضامين الصحيحة لتلك الأهداف، وهــذا التصــدي الديمقراطي يقف على أرضية توحيديــة حواريــة فــي بناء التلاحم الوطني بحركة الناس، وليأخذ مجالاته بالفكر والتأثير، صــيغاً تكــتيكية فــي النضال السياسي، وهذا التصدي الإيديولوجي أيضاً لا بد أن يأخذ ومنذ البداية المواقف الاستراتيجي الشامل، والقاطع وهــذا الموقف الشامل والقاطع هو الذي يرسم أمــام الجميــع صــيغ العمــل الاســتراتيجي، والتكتيكي في مواجهة القوى الظلامية المضادة لحركة الناس الديمقراطية.

إن تلاقــي القوى الوطنية الديمقراطية واتفاقها على فهم مشترك لطبيعة المرحلة التي تمــر بهــا أمتنا، وعلى ضرورة تجاوز أزمتها والتناقضــات الــتي تمــزقها وتعطل تحررها وتقدمهــا وعــلى أن الديمقراطية طريق لها، وغايــة، بحيــث تحــدد مســارها نحو إنجاز مهماتها في التحرر والاشتراكية، والوحدة، كل ذلــك يضــع أمــام قــوى الــتغير إطاراً عاماً لاســتراتيجية موحــدة، أنهــا ولو اختلفت في بعض من منظوراتها الإيديولوجية، فإنها على قــدر كــبير مــن التلاقي، وهذا التلاقي كاف للوصول بها عن طريق الحوار الديمقراطي إلى بــرنامج عمل مشترك، له أبعاده الاستراتيجية لمرحــلة تاريخية كاملة، وهذا ما هو مطلوب الآن أكثر من أشي آخر.

إن المرحلة تحتاج من الجميع إلى خط تــنويري ينشد التجديد ويعمل للتغير، والتقدم، ويــأخذ بمــنهجية واضــحة فــي الــتفكير والممارســة، ويقــدم مشــروعاً ديمقــراطياً لــبرنامجه المرحــلي والاســتراتيجي يعيــن توجهاته نحو المستقبل، يحرك الطاقات ويدفع للــتقدم والــتجديد الحقيقــي يقتضي مراجعة الأفكــار فــي كل خطوة، ووضعها على محك الواقــع ويقتضي وعي حركة التاريخ الفعلي، واستكشــاف مــنهج لــتجاوزها، والتطلع إلى تجديــد فــي الــثقافة الشعبية العامة وبالتالي يتضــح الموقــف مــن تيــار وطــني متنور وديمقراطي وتيار آخر يلغي الديمقراطية فيلغي الإنسان في النهاية.



سـعاد الصباح قصيدة الخليج التي بُنِيَ عمودهـا الشـعري عـلى الثورة على الواقع وعلى التقاليد الاجتماعية، فعزفت في قصائدها عـزفاً يكـاد يكون منفرداً على أوتار الرفض، فكـانت قصـائدها تعـبّر عن مشروعٍ شعريٍّ أساسـه قدرة المرأة العربية عموماً والخليجيّة خصوصـاً على المشاركة في بناء الوطن. من هـنا لا غرابة أن يكون هاجس الشاعرة الأوّل هـو الحريّة، هذا الهاجس الذي اتّسم بالجرأة في الطرح شكلاً ومضموناً، في مجتمعٍ اتّسم به الأدب بالذكوريّة..

وكيـف لا يتّسـم بذلك والشعر لديها لا يزال مصدر تذكير لنا بأنّنا أحياء وأنّ الوأد لم يدفن كل الرموز الحياتيّة، ومن منطلق الثورة، الـثورة الـتي تطالب بالحقوق غير منقوصة، الـثورة الـتي تكسر حصار منع التجوّل الذي فرضه الرجل الشرقي الثورة التي تحرر المرأة مـن شـهريار العصـر.. كان لا بد لشهرزاد، والحالـة هـذه، من أن تكسر الأقفال في فمها لتـنطق نحو تحقيق الذات، ومن هنا لا غرابة أن يـتكرّر ضـمير الأنا، هذا الضمير الذي لا ينطوي على نرجسيّة كما هو مألوف، بقدر ما ينطوي على تأكيد على الحضور، هذا الضمير الأنـثوي الـذي يريد أن يقول: "إنّي هنا" ومن هـنا لا بـد مـن الـثورة على وصايا القبيلة المستبدة لتحقيق الذات:

أنا الخليجيّة

الهاربة من كتاب ألف ليلة

ووصايا القبيلة وسلطة الموتى..

أنا النخلة العربيّة الأصول

والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول

فصوّرت المرأة التي تريد تحقيق ذاتها هو الصوت الأقوى في شعر سعاد الصباح وهو حاضرٌ في أغلب ما كتبت، حيث نرى صوت المرأة المثقفة التي وقفت على واقعها وأدركت (اللاءات) المفروضة على المرأة والفيتو المفروض على نون النسوة في مجتمع يقف ضد ثقافة المرأة وضد خروجها من القمقم وضد أن تكتب، وأن تتفوّق على الرجل فالكتابة وقْفٌ على الرجل وإثمٌ يحظّر على المرأة ارتكابه:

يقولون:

إنّ الكتابة إثمٌ عظيمٌ..

فلا تكتبي..

وإنّ الصلاة أمام الحروفِ

حرامٌ.. فلا تقربي

وإنّ مداد القصائد سمٌّ..

فإيّاك أن تشربي..

لكنّ الشاعرة ترفض هذا الواقع، وتكسرُ هذا التمييز العنصري:

وها أنذا

قد شربت كثيراً

فلم أتسمّم بحبر الدواة على مكتبي

وها أنذا..

قد كتبتُ كثيراً

وأضرمتُ في كلِّ نجمٍ حريقاً كبيراً

فما غضب الله يوماً عليّ

ولا استاء منّي النبي..

ومن هنا تقف الشاعرة في صفوف المحتجين، لتعرض الواقع المؤلم الذي تحياه المرأة في مجتمع شرقي يرى المرأة من سقط المتاع والأنوثة حالة من الضعف:

يقولون:

إنّ الأنوثة ضعف

وخير النساء هي المرأة الراضية

وإنّ التحرر رأس الخطايا

وأحلى النساء هي المرأة الجارية

وإلحاح الشاعرة على استخدام كلمة (يقولون) غير مرّة في هذه القصيدة هو تأكيد على نقل الصورة الاجتماعية كما يتداولها الناس وكما رسخت في أذهانهم، وربّما؛ بل حتماً هذا ما جعل فكرة الرفض تتبلور بشكل صريح خالٍ من المواربة والتمويه في إعلان الرفض وبجرأة باتت معهودة من الشاعرة، جرأة لا تخلو من تفاؤل ثوري بالتغير:

وأرفض أفكار عصر التنك

ومنطق عصر التنك

وأبقى أغني على قمّتي العالية

وأعرف أن الوعود ستمضي

وأنّ الزوابع تمضي

وأن الخفافيش تمضي

وأعرف أنهم زائلون

وأنّي أنا الباقية...

وثوريــة ســعاد الصباح هي ثورية لا تجــامل ولا تقبل أي بصيص أمل، على ندرته فــي مجتمعنا الشرقي، إذا لم يكن صادقاً يربط القــول بــالفعل، ومن هنا برزت لدى الشاعرة نقديّــة رافضة للازدواجيّة عند بعض المدعين الذين يزعمون التقدّم وأفكار العصور الوسطى مــا تزال معشعشة في خرائب عقولهم تمخرها باستمرار:

كم أنت بليغٌ ومتدفق

عندما تتحدّث

عن مأزق المرأة العربيّة

وضرورة فك الحصار التاريخي

وعقلها وجسدها المطمور تحت الرجل

ولكن ما يدهشني

أنّك عندما تكتب

تضع المرأة دائماً

"بين قوسين"

كمــا اتّسمت ثوريّة الشاعرة بالجرأة فــي التعــبير عن المشاعر، فالحبُّ ليس ذاك الفــتى المتســوّل المنبوذ من المجتمع، بل هو أساس الحياة لذلك لا غضاضة في نقض الحكم بالســجن المؤبــد الذي أصدره المجتمع على عواطف المرأة:

أسمّيك

رغم احتجاج قريش

"حبيبي

والحــقُّ أنّ الشــاعرة لا تفصــل بين المــرأة والرجل، وإنّما تريد بناء علاقة جديدة قائمــة على المودّة والاحترام، علاقة لا تتوقّف عــند جســد المــرأة وشكلها الخارجي وتهمل فكرها وعقلها:

كن صديقي

كن صديقي

إنّني أحتاج أحياناً لأن أمشي على العشب معك

وأنا أحتاج أحياناً لأن أقرأ ديواناً من الشعر معك

وأنا – كامرأةٍ – يسعدني أن أسمعك

فلماذا – أيها الشرقيُّ – تهتمّ بشكلي؟

ولماذا تبصر الكحل بعيني

ولا تبصر عقلي

بقــي أن نشــير أخيراً إلى أنّ ثوريّة ســعاد الصــباح على الواقع الاجتماعي الذي تعيــش فيــه المــرأة فــي مجتمعنا، هو جزء مــن ثورتهــا عــلى المجــتمع الذي عمّ فيه الفســاد بفعــل الــثروة والمــال، وهي جزء مــن ثوريّــة قوميّــة واضــحة فــي شعرها، ثــورة قوميــة على الواقع العربي الذي يعمّه الجهــل والتخــلف والــتفرّق والتشرذم وهذا مــا يــبرز بشكل واضح في مجموعتها فتافيت إمرأة..







شعر: د. سعاد الصباح

قـــالَ لـــي وهــوَ بطَعـمِ الــ

ـقُبـلةِ الحسـناءِ أخـبر

إنَّ فـي ثغـركِ نـافو

رةَ يـاقوتٍ وعنـبر

لـو رنـا الـوردُ إلى أنـ

ـفاسـها الحـرّى تـبخّر

أو دنـا الـراهِبُ مـنها

نسـيَ الدَيـرَ ليسـكَر

كُـلُّ حَـرفٍ مـن جـنى ثغـ

ـركِ مقطوعـةُ سُـكَّر

فـاحذَري إن لامسـتها

نسـمةٌ أن تتكسَّـر

أنـتِ يـا فاتنـتي أحـ

ـلى مـن الدُنيـا وأنضَـر

وابتسـاماتُك تجـلو الـ

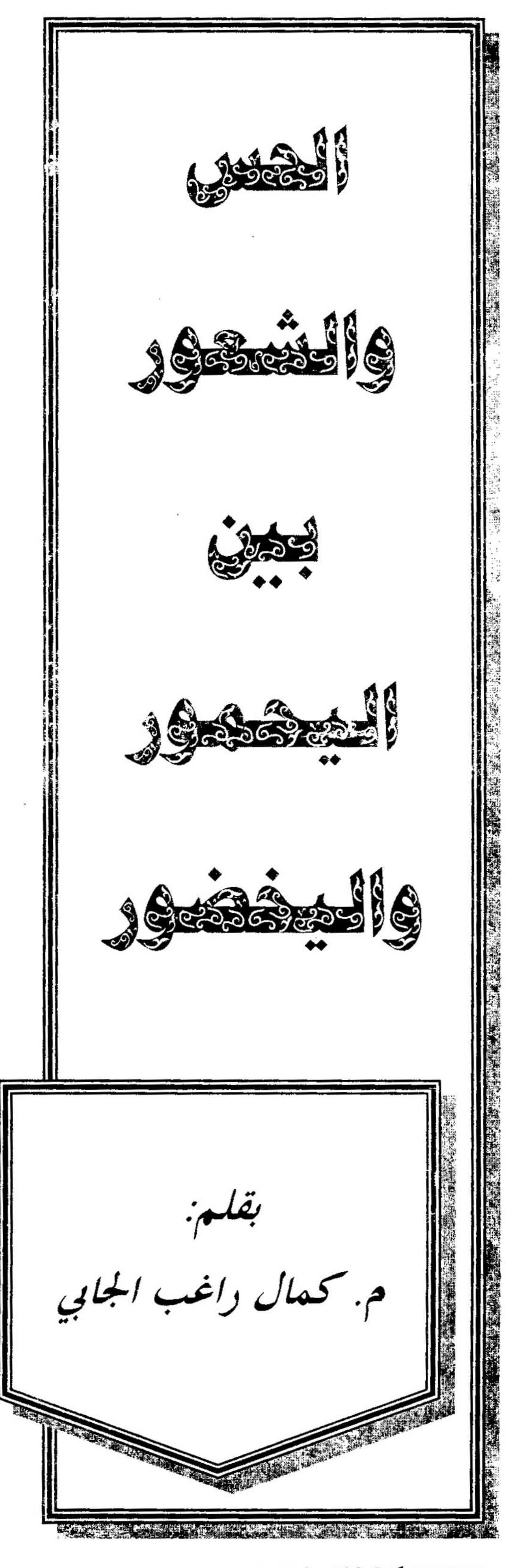
ـكـونَ كالفـردوسِ أخضَـر

أنـتِ لـي أُمـنيةٌ أحـ

ـلى مـنَ الحُـبِّ وأكـبر







الحس والشعور بين البحور والبخور

بقلم:
م. كمال راغب الجابي

الغذاء هو زاد الكائن الحي وزوادته خلال رحلة حياته. وهو وقود هذا الكائن ومحرك وجوده من جهة، ورفيق تلك الرحلة وركيزتها من جهة أخرى. وهو في الوقت نفسه كالجنس وسيلة الحياة لتحقيق غايتها، وطريقها الموصل إلى رحيقها. لذلك غلفتهما الطبيعة معاً بالجاذبية وعدَّت الرغبة قرينتها، وضمنتهما سوية باللذائذية واعتبرت الشهوة شفيعتها. وحلَّت كلاً منهما بصفات خارجية وسمات داخلية جعلتهما مصدراً للإغراء والافتتان. وصبغت الأشكال والأنواع التي تثير الرغبة في تناول الطعام منهما بالأشكال البهية والألوان الغنية والروائح الذكية والمذاقات السخية. وأحلَّت للبشر نوعين رئيسيين منها أدخلت أولهما تحت النوع النباتي بحبوبه وبقوله، وثماره وخضاره، وقثّائه وفطوره. وأدخلت ثانيهما تحت النوع الحيواني بأسماكه وبرِّمائياته، وبزواحفه وطيوره، وبوحيدات معدته ومجترّاته، وبألبانها وبيوضها، وشحومها ودهونها، بعد أن بثّت من هذه الأنواع والأشكال الآلاف المؤلفة من الأصناف بمختلف المذاقات والنكهات. كما صنَّفت الأشكال التي تثير شهوات الجنس منهما بعد أن جعلت النوع البشري جنسين متمايزين أدخلت أوّلهما تحت جنس الذكور وزودته بالقوة والقسوة. وأدخلت ثانيهما تحت جنس الإناث وأترعته بالرقة والرحمة. ونوعت أشكالهما الخارجية بالألوان المتباينة والأطوال المختلفة، والأحجام المتفاوتة، والقسمات المتمايزة. ولونت سماتهما الداخلية بالتوجهات

المتنافرة، والطباع المتغايرة، والثقافات المتجاذبة، والتطلعات المتضاربة. ومزجت هذه الصفات والسمات ببعضها وخلطتها مع غيرها وبثت منها الآلاف المؤلفة من الأفراد بجنسيهما. وجمّلت بعضها لتصبح مثار إعجاب الآخرين ومصدر رغبتهم. وغلّفت ذلك بعاطفة الحب وأضحى الوصال هو هدف هذه العاطفة وغايتها، وأصبح الإنجاب من أهم نتائجها، بالطريقة نفسها التي أضحى معها الوصول إلى الغذاء هو أسلوب غريزة البقاء ووسيلتها، وغدا الترابط بين الغذاء والجنس والإنجاب وثيقاً. وصارت هذه الأقانيم المثلث المعبر عن الحياة والمترجم للوجود..

ولا غرو بعد ذلك أن يطلق القدماء على الذكر اسم "المرء" وعلى الأنثى اسم "امرأة" اشتقاقاً لاسميهما من فعل "مرأ" أي "طعم" وإن يكون المصدر من هاتين الكلمتين كلمة "المروءة" التي هي كمال الفحولة الاخصابية. وبحيث جمعوا في هذين الإسمين ومصدرهما غريزتي الطعام والجنس الحياتيتين معاً. ولا غرابة أن يصبح الإنجاب، بكونه النتيجة الحتمية لهاتين الغريزتين، هو أداة استمرار الحياة ووسيلة انتظام الوجود. وأن يشكل متعة متفردة تستمد مفرداتها من نوازع الاستعاضة عن استحالة الخلود الذاتي بالخلود الغيري لأفراد تنبثق عنا، وتحمل دماءنا وأسماءنا، وتعمل على إكمال مسيرتنا، وإعمال رسالتنا.

لكن الأشكال المثلثة لا توحي للناظر إليها بكمال هندسي ولا تولد قناعة لديه بجمال حسي أو جلال قدسي. وتكوّن انطباعاً عنده بصعوبة الارتكاز عليها وخطورة اعتبارها هيكلاً صالحاً لإقامة أبنية ثابتة الأسس، متينة القواعد، راسخة الجذور، شامخة الانتصاب. ولا سيما إذا كانت أضلاع هذه الأشكال متباينة الأطوال وغير متناسبة الأبعاد. كما هي الحال في الطول المفرط للضلع الممثِّل للغذاء فيها، باعتباره الركن الأهم في الحياة، ولكونه يجرّ بدوره الضلعين المتعلقين بالجنس والإنجاب ويدفعهما لأن يبارياته أو يجارياته في الامتداد.. ويضاف إلى ذلك بأن الأهمية البالغة للغذاء قد تتحول عند بعض الناس إلى أهمية استثنائية وبشكل يصبح معها الصديق الأقرب إليهم والأفضل لديهم والذي تتقدم منزلته عندهم على ما عداها. وقد يعود ذلك أحياناً إلى كونهم يعانون من جوع عاطفي أو جنسي أو فكري أكثر من معاناتهم من جوع حقيقي. ويقابل هذه الحالة المنتشرة بكثرة حالة استثنائية قليلة الانتشار يعاني أصحابها من الجوع من أجل الجوع ويستمرئون الحرمان من الكماليات وبعض الضروريات كما يستمرئ الفريق الآخر الإدمان عليهما معاً..

لكن الحرمان في حالاته الأعم يعود إلى ضيق ذات اليد المؤدي إلى ضيق ذات البطن والذي هو الصفة الغالبة لبسطاء الناس والطيبين منهم بشكل خاص. بينما الإدمان على الطيبات في حالاته الأشمل يعود إلى سعة ذات اليد المؤدية إلى سعة ذات البطن والذوات الأخرى المتعلقة بها والتي هي الصفة الغالبة لخبثاء الناس والذنبيين منهم بشكل خاص.

ووجود هاتين الفئتين جنباً إلى جنب، وبصورة واضحة وفاضحة في بعض المجتمعات، أنصع دليل على أن العدالة ظلت مبدأ وهمياً ملتبساً وعاراً وشناراً على مدار التاريخ.

ويتماشى الإفراط في طول الضلع المتعلّق بالغذاء في أغلب الأحوال مع زيادة في طول الضلع المتعلق بالجنس. فالأفراد النهمون في أحدهما يكونون نهمين في الآخر غالباً والأفراد المعتدلون هم معتدلون في كلاهما في كثير من الأحايين. بينما يتفاوت طول الضلع المتعلق بالإنجاب بتفاوت النظرة إلى الحياة والموقف منها والذين يتباينان بتباين الاستعداد والثقافة والوعي الناجم عنهما. وبشكل عام فإن الأفراد النهمين بالجنس والغذاء نهمون بالإنجاب أيضاً لأنه النتيجة الطبيعية للإسراف بهما معاً، وذلك في حالة عدم وجود موانع خلقية تحول دونه لديهم، فالتهافت على الشهوات في حال توفر الإمكانيات بناء مترابط يشكل الغذاء ركنه المؤسس، والجنس ركنه المجمل، والإنجاب ركنه المكمل.. لكن تغيير المفاهيم والأحكام بتغيير الأزمان والأفهام حجم من الركن الأخير. ولعب التقدم في التخصصات الطبية الذي انعكس على انخفاض نسبة وفيات الأطفال، وإطالة متوسطات أعمار الأفراد، والتوسع في إنتاج موانع الحمل، دوراً كبيراً في جعل طول ضلع المثلث المتعلق بالإنجاب يتقلص وينكمش. وبخاصة في الدول التي قطعت شوطاً في مجال التطور والذي اعتبر رفع المستوى المعاشي الفردي من أهم مقوماته. إذ تطلب هذا الرفع التخلي عن تحمل المسؤوليات الكبيرة. بإنجاب عدد كبير من الأطفال وإعالة أسرة كبيرة العدد والاكتفاء بأعداد محدودة منهم لتخفيض نسبة الانفجار السكاني الذي قد يؤدي إلى خلخلة هذا الوجود وزعزعة أركانه.

وفي كل الأحوال، فإن لكل فرد من أفراد النوع البشري مثلثاً للرغبات خاصاً به تتباين أطوال أضلاعه بتباين نوازعه ودوافعه وتوجهاته وتطلعاته. وتلعب العوامل الوراثية دوراً كبيراً في تحديد هذه الأطوال، بينما تلعب العوامل البيئية، والتربوية منها بشكل خاص، دوراً أكبر في هذا التحديد. كذلك فإن لكلٍّ من المجتمعات شكلاً مميزاً للمحصلة النهائية لمجموع هذه المثلثات الخاصة بأفرادها. بحيث تبدو المجموعة الأكبر منها في الدول المتطورة ذات أضلاع متقاربة ومتناسبة وهي التي تعكس أوضاع الطبقة الوسطى فيها. بينما تبدو مجموعتان صغيرتان تظهران كجزيرتين منكمشتين أضلاعهما إما ممدودة أو مشدودة وهما اللتان تعكسان أوضاع الطبقتين الغنية والفقيرة فيها. بينما تبدو الصورة عكسية وبشكل نسبي في الدول السائرة على طريق التطور وحسب المسافة التي قطعتها على هذا الطريق..

لكن الخالق العظيم، ورغبة في تنظيم النوازع المثلثية الحسبة المشار إليها آنفاً وتوخياً للارتقاء بها من المرحلة الغريزية المحضة التي تتشارك فيها كل المخلوقات الحية إلى مرحلة روحية متطورة يسمو بها النوع البشري على الأنواع الحية الأدنى. قام

بتمييز هذا النوع عن طريق النفخة الإلهية الكريمة التي هذب بواسطتها التوجهات الحسية الخالصة لدى هذا النوع وأحالها إلى توجهات تختلط فيها الرغبات الغريزية الفطرية مع النواظم العقلية والعاطفية. وجعل منها مزيجاً ذا سمة متفردة وذلك عن طريق إضافة ضلع رابع إلى الشكل المثلثي الحسي لديه، وهو الضلع الشعوري، ليكون ضابطاً للأضلاع الثلاثة الغريزية، ومخففاً من غلوائها. وأحال عن طريقه مثلث الرغبات المذكورة إلى مربع يبدو أكثر تكاملاً، وأقوى تماسكاً، وأشد جمالاً، وأبهى تناسقاً، وجعله أصلح لإقامة ركائز متينة، وأقدر على إرساء أسس ثابتة لإقامة صروح التقدم البشري، ومد جسور التعاون بين من يقيم في ظلها عن طريق تهييج أحاسيس الحب بينهم وتأجيج مشاعر المحبة المولدة لها والمتولدة عنها..

ونتيجة لذلك أخذت العلاقة بين الجنسين تتجلى بمظهرين متباينين ولكنهما متكاملين، أولهما غريزي جسدي لذائذي وهو أشد ارتباطاً بالإحساس ذي الطابع الذاتي المادي الذي صار الإنسان يتعامل بموجبه بعد طرده من الجنة ويغيب بوساطته عند اتصاله بقرينه لـلحظات ينتقل خلالها بإحساسه إلى اللذائذ التي عاشها في فردوسه المفقود كما صار ينجب أو يخلق عن طريقه بعد أن كان الخلق فيها عن طريق الكلمة. وثانيهما عاطفي روحي جمالي يسمى بالحب وهو أشد ارتباطاً بالشعور العاكس للاَّ شعور ذي الطبيعة الخيرة التي كان الإنسان يتعامل بموجبها في الجنة. وصار يمهد بوساطته الطريق للمحبة مع الآخرين ويقود إليها.. ونتيجةً لذلك أضحت أدوات الجنس مادية يحس معها الإنسان باللذة العابرة بينما غدت أدوات الحب شعورية ولا شعورية يرتقي بها الإنسان إلى السعادة الغامرة.

* * *

والضلع الرابع المتعلق بالشعور هو الذي يشكل الشق الثاني من عنوان هذا الحديث الذي تناولنا الحس وأهم مفرداته بعجالة في الشق الأول منه. والشعور هو المنحة الإلهية المغلَّفة بالعذوبة المتناهية والمبطنة بالشفافية المتنامية والتي يقاس بها مقدار الانحراف في الأضلاع الخاصة بأحاسيس الغذاء والجنس والإنجاب لدى الإنسان. كما أنه الأداة البشرية البالغة الدقة والرقة التي لا تتمكن إلاَّ أن تتفاعل مع الأشخاص وممارساتهم وتنفعل بها، ولا تستطيع إلاَّ أن تتعاطف مع الأفراد الذين تحرمهم الطبيعة من عدالة التمتع بمستلزمات حياتهم ومجملاتها وتعطف عليهم. وهو بالتالي الذي يعمل على تحويل النوع البشري من مجرد نوع من أنواع المخلوقات الحية، كالنوع البقري، إلى نوع ذي تصرفات نبيلة وممارسات جليلة يسمو بوساطتها على النوع البيولوجي الذي ينتمي إليه، ويرتقي عن طريقها إلى مدارج قيمية متعاظمة ومتناغمة، ليصبح نوعاً متفرِّداً متميزاً بالأنسنة التي تجمع في مفهومها بين العقلانية والرحمانية. وتوحد في مضمونها بين استخدام اللسان

وجمال البيان، وبين فيض الحنان ونبض الوجدان..

وأدوات الشعور الأساسية هي أدوات الحس الخمسة المتمثلة بالحواس. لذلك يطلق عليها لغة إسم "المشاعر" وإن كان الشعور يرتكز فضلاً عنها على ما يسمى بالحاسة السادسة التي يتلقى فيها الإنسان رسائل عن طريق أقنية غير تقليدية لا ترتبط مباشرة بالحواس بقدر ارتباطها بالفؤاد أو القلب الذي يقلِّب الأمور ويفحصها بعد أن يقلبها رأساً على عقب ويرسل أمواجاً غير مرئية ذات ذبذبات متباينة حولها. وقد يكون للغدة الصنوبرية التي تفرزها مورفينات الجسم، بنسب محددة، لتعديل الآلام الناجمة عن أعماله الحيوية، كالاحتكاك الناتج عن دوران الدم، أو عن ضغط العظام على المفاصل الموجودة بينها، أو الناجم عن ثقل الجسم وغيرها.. قد يكون لهذه الغدة، التي تشكل عيناً ثالثةفي بعض الحيوانات البحرية، دور لم يجر التعرف على طبيعته حتى الآن في سيلان الأمواج الخاصة بالشعور وجولاتها وتغلغلها في أعماق النفس البشرية. ولعل من دلائل هذا الدور ازدياد فعالية هذه الغدة في الظلام واثناء الصمت والعزلة. بسبب أنها تؤدي إلى سكون العقل الواعي الذي يرتكز على الاستقراء والاستدلال والاستنتاج وعلى تهييج العقل الباطن الذي ترتكز عليه قوة وحكمة النفس البشرية.

ويختلف تقييم دور الحواس الخمس فيما يتعلق بالحس والشعور بين المهتمين بإجراء مثل هذا التقييم. فبينما يعتقد بأنه بالنسبة للأحاسيس يعد البصر أكثر الحواس فعالية، والسمع أشدها تفعيلاً، والذوق أميلها إلى التدقيق، واللمس أقربها إلى التثبيت والتأكيد، والشم أقربها إلى النسبية وعدم التعميم. يعتبر "ديدرو" من زاوية الشعور أن حاسة النظر أكثرها سطحية، وحاسة السمع أشدها غروراً، وحاسة الذوق أميلها إلى التطير، وحاسة اللمس أقربها إلى التعمق، بينما حاسة الشم غير خاضعة للتصنيف لكونها تخضع للشعور أكثر من خضوعها للمنطق.

ومن الشعور يشتق الشعر، الذي هو إسقاط الذات على الآخر وتبادل المعاناة معه. وهو في تنويعاته العديدة وتشكيلاته المديدة حمَّال أوجه كثيرة ونقَّال صور مثيرة. بعضها فاعلة تعتمد على محاولة اكتشاف أعماق شعورية غير مطروقة في الفكر البشري ومناطق غير مأهولة في الذات الإنسانية والسعي إلى استخراج كنوزها واستعراض جمالياتها. أو تركز على استنطاق الأحاسيس وأدواتها وتسليط الأضواء على تداعياتها وإسقاطاتها بعد بعثرة مفرداتها وإعادة تجميعها. أو ترتكز على الخيال الحادي الهادي وعلى التجارب الحياتية، وعلى المعاناة المرافقة لمجرياتها والمصاحبة لذكرياتها.. وبعض هذه الصور لا تخرج عن كونها شحنات صاخبة أو غاضبة تكسبها الموسقة نكهة مستحبة أو مستغربة.. أو توجهات سريالية عائمة وغائمة مشفوعة بشطحات صوفية متفجرة ومتشظية أو بدفقات إلهامية

حــول أمــور غيــبية مجردة بألوانها وظلالها وإيماءاتها وإيحاءاتها.

والشــعر الحقيقــي بجميــع أنواعــه وأوضــاعه وبمختــلف أشــكاله وألوانه يدفع بقائلــه لأن يزاوج بين العقل والشعور ويوائم بيــن العــلم والجمال لذلك لا بد أن يرفده لديه رصيد وجداني متدفق، ومخزون فكري متعمّق، وإحساس فني مترقرق. وهو أوقع على النفس وأشــد تأثيــراً عليها من النثر. وأكثر مداعبة لــلعواطف وأشــد تعلقاً في الذاكرة من أنواع التعبير الأخرى. وهو فن شفاف يُعبَّر بوساطته بطــريقة مموسقة عن المشاعر المستندة على وضــوح الجــزئيات المــراد تصويرها وجلاء الــرؤيا المقابــلة لها. وقد تكون هذه المشاعر مختزنة في واعية الشاعر فتأتي الصورة جلية لا لبس فيها أو تكون مختزنة في خافيته فتأتي غامضة بمقدار تعقيد تخزينها فيها..

ويختــلف الشــعر عن وسائل التعبير الأخــرى بالذبذبــة الشعورية التي إذا لم تهز قائــلها لا يمكــن أن تهز سامعها وقد وصف الشاعر الزهاوي هذه الدفقة الهادرة بقوله:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقــاً أن يقال له شــعر

كمــا يختــلف عــن الفــنون الأخرى بــتركيزه لــلجمال وتكــثيفه لعبيره وتسهيله لعــبوره إلى منابت الإحساس ومراكز الشعور وقد عبر الشاعر بدوي الجبل عن هذا التركيز بقوله:

وتوجز في قارورة العطر روضة
وتوجز في كأس الرحيق كــروم

والشــاعر كلمة اتفق على استعمالها ووصــف مــن يقول الشعر بها. وهي لا تنفي صــفة الشعور عن الآخرين. فجميع الناس ذو شــعور أي ذو فطنة وذو علم ودراية بدرجات مــتفاوتة. لقد سمي الشاعر شاعراً لكونه أعلم وأفطــن وأدرى مــن غيره في المجالات التي يــتعرض لها في شعره. لقد كان من الأجدى، فــي تصــورنا، أن يطــلق على الشاعر اسم "مشــعر" لأنــه لا يكــتفي كالكــثير من الناس بالفطــنة والعــلم والدراية، إنما يقوم بإشعار الآخــرين بها، خلافاً للآخرين الذين قد يكونون عــلى درجة كبيرة منها تفوق من يطلق عليهم اسم الشعراء لكنهم لا يملكون أدوات نقل هذه المشــاعر إلى غيــرهم. وفي كل الأحوال فإن الشــاعر هــو صــاحب الشعر وليس صاحب الشــعور لغة. وإن إطلاق اسم شاعر على من يقول الشعر عرف جرت العادة على اتباعه منذ القديم ولا مجال لتغييره بعد هذه المدة المديدة.

ولــدى الاســتطراد بعض الشيء في الناحية الغوية نجد بأن بعض الكلمات المشتقة من فعل شعَرَ أو من مصدر الشعور، تدل فيما تــدل، عــلى الكثرة والوفرة من ناحية، وعلى العلامــات الــبارزة والإشــارات الواضحة من ناحيــة أخرى، وهي جميعاً من مظاهر الشعور ودلالاتــه. ويكفــي أن نستعرض كلمات شَعْر وشَــعْراء (الشــجر الكــثير) وشعار وشعائر (مناســك وطقوس) لمعرفة العلاقة بينها وبين أصولها. ولعل استعمال كلمة "مشعور" باللهجة الدارجــة لــلدلالة على وجود "شرخ" أي أول الكســر فــي الأمــور الــتي يدب فيها العطب

وبالشعر بالذات عند عدم اتساق أحد الأبيات مع البحور الشعرية المعروفة يدل على أن الإشعار ينبغي أن لا تشوبه شائبة، وأنه في حالة إصابته بخلل ما تتحول شفافية الشعور إلى ضبابية الشيء المشعور.

* * *

إثر هذا العرض السريع للأحاسيس المتعلقة بالغذاء والجنس والإنجاب والمشاعر الناجمة عنها والناظمة لها. سنعمد وبعجالة مماثلة إلى تناول المفاهيم المتعلقة بكلمتي اليحمور واليخضور لنخلص إلى استنتاج العلاقة الوثيقة بين ما يشير إليه هاتان الكلمتان وبين الأحاسيس البشرية والمشاعر الإنسانية..

واليحمور هو "الهيموغلوبين" أو خضاب الدم المشكل لبروتين كريات الدم الحمراء والمختلط بالحديد الذي يعطيه اللون الأحمر، والذي هو لون بعض أنواع اللحوم التي يستهلكها البشر في غذائهم، ولون كلّ الدماء التي يسفكونها في حروبهم، ولون فوران الجنس الذي يتعاطونه بأحاسيسهم، ولون توهج الورد الذي يتبادلونه للتعبير عن مشاعرهم، ولون تأجج النار التي تلهب النزوات والتطلعات في أعماقهم. وهو بذلك رمزٌ يجمع بين الرغبة العارمة والقوة المتوحشة، والشهوة الطاغية، والعاطفة المتدفقة، والحرارة الحارقة.. وكمية الحديد الموجودة في دم الإنسان والتي تكسبه هذا اللون لا تزيد عن ثلاثة غرامات من أصل أربعة غرامات موجودة في كامل جسمه. وهي كمية قليلة جداً بالنسبة لوزن جسمه مما يدل على قوة تأثير هذا العنصر الهام وشدة فعاليته..

والإنسان من المخلوقات الآكلة للحوم. وهو يتساوى مع الحيوانات اللاحمة والتي يطلق عليها اسم الحيوانات المفترسة ولكنه يختلف عنها بأنه يتناول هذه اللحوم بكميات محدودة نسبياً. وأن غذاءه يتألف أساساً من الأغذية النباتية. بينما تشكل اللحوم الغذاء الأساسي بل الوحيد للحيوانات اللاحمة. ويعكس عدد أسنان الإنسان وأشكالها النوعيات التي ينبغي له أن يستعملها في غذائه. فمجموع عدد الأسنان في فكيه ثمانية وعشرون سناً منها أربعة أسنان تشكل سبع أسنانه صالحة للتعامل مع اللحوم ويطلق عليها اسم أنياب. وهذا يعني أن سبع كمية غذائه أي ١٥% منها ينبغي أن تكون من اللحوم. وأما بقية أسنانه فتتكون من ثمانية قواطع صالحة للتعامل مع الخضار والفواكه. وهذا يعني أن هذين النوعين ينبغي أن يشكلا بحدود سبعي أو حوالي ٣٠% من كمية غذائه. كما تتكون من ستة عشر ضرساً صالحة للتعامل مع الحبوب والعمل على هرسها وطحنها. وهذا يعني أيضاً أن هذا النوع من الغذاء ينبغي أن يشكل حوالي خمسة أسباع غذائه أي بحدود ٥٥% منه. وأما أسنان الحيوانات اللاحمة فمتشابهة وجميعها أسنان منشارية ذات رؤوس حادة وأطراف قاطعة وصالحة للتعامل مع اللحوم تحديداً..

بالإضافة إلى ذلك فإن طول أمعاء الإنسان أكثر قرباً من الحيوانات العاشبة وأكثر شبهاً لها حيث يتراوح بين ثمانية وإثني عشر ضعفاً لطول جسمها وذلك لإتاحة الزمن المناسب لهضمها وبخاصة أنها لا تتعفن بسرعة مما يسمح بقاءها فترة طويلة في أمعائها بينما لا يزيد طول أمعاء الحيوانات اللاحمة عن ثلاثة أضعاف طول جذعها لكون اللحوم التي تستهلكها سريعة الفساد مما يتطلب عدم بقائها فترة طويلة في أمعائها ويفرض عليها طردها خارجها..

ويختلف الإنسان عن الحيوانات اللاحمة أيضاً بأن جهازه الهضمي معد بشكل يتناول فيه اللحوم بعد طهوها أو شيها. بينما الجهاز الهضمي للحيوانات اللاحمة معد بشكل يستطيع معه تناول هذه اللحوم بحالتها النيئة، حيث يمكن له تحليلها وهضمها بهذه الحالة. بينما لا تقبل الحيوانات اللاحمة على استهلاك اللحوم المطبوخة ولا تقبل تناولها بهذا الشكل لكونها تسبب لها إزعاجات هضمية كما قد تسبب لها العقم.. ولعل هذا من الأدلة على اعتماد الأجيال البشرية الأولى قبل اكتشاف النار على الأغذية النباتية وعلى الحليب ومنتجاته وليس على اللحوم في غذائها، فضلاً عن أن لعاب الإنسان والحيوانات العشبية قلوي التركيب وبدرجات متقاربة لعدم الحاجة إلى هضم النباتات فور دخولها إلى الفم. بينما لعاب الحيوانات اللاحمة حامضي التركيب وتزيد نسبة حامض كلور الماء فيه عن عشرة أضعافها في لعاب الإنسان وذلك لكي يبدأ تحليل هذه اللحوم وهضمها ابتداءً من لحظة دخولها إلى فمها..

ويختلف الإنسان أيضاً عن الحيوانات اللاحمة بأنه ليس لديه القدرة الكبيرة على طرد الكميات الفائضة عن حاجته من الكولسترول في برازه. إذ لا يمكنه التخلص سوى من كميات محدودة منها. كما لا يتمكن كبده أيضاً من استخدام سوى كميات محدودة أيضاً مما يحتويه الغذاء منها لتأمين احتياجات جسمه التي تتراوح بين ٢٠٠ – ٣٠٠ ملغ يومياً. وأما باقي الكميات التي يحتويها هذا الغذاء فيجري ترسيبها في الأوعية الدموية وفي المرارة والتي قد يشكل استمرار ترسيبها ما يطلق عليه اسم الجلطة الدموية بينما يوجد لدى الحيوانات اللاحمة قدرة كبيرة على طرد فائض الكولسترول في برازها.

وليس مجهولاً بأن زيادة نسبة الكولسترول في غذاء الإنسان وزيادة نسبة الدهون وبخاصة الصلبة منها هي من أهم الأخطار التي تؤدي إلى تشكيل العصيدة الوعائية وتصلب الشرايين لديه. إذ تبين الإحصائيات بأن أمراض القلب والأوعية الدموية تشكل حوالي ٣٠% وأن السرطانات تسبب حوالي ٢٠% من أسباب الوفاة لدى البشر. وأن عدم الاتزان باستهلاك الغذاء وعدم التوازن في نسب اللحوم والدهون فيه هما السببان الرئيسيان للإصابة بهذه الأمراض بنوعيها. وأن علم السرطان الغذائي هو العلم الحديث الذي يبحث بشكل حثيث عن كيفية تلافي هذا المرض الخبيث..



من المآثر الأدبية عند العرب

بقلم: مروان الخطيب

القصة شأن رفيع من الآداب وفن من فنونه الجميلة وردت عند الأمم المختلفة، هي في آثار المصريين القدماء وشعر الأغريق، وما خلفه الفرس والهنود على مر الزمان، كما ورد في الكتب السماوية التوراة والإنجيل زخرت بها آي الذكر الحكيم. ولعل العرب من الأمم التي كان لها النصيب الوافر من هذا الفن الرائع أُثر عنهم قصص ابتدعوها وقصص ترجموها عن الفرس والهنود وأغنوها بما تزيدوا عليها وكان لها رصيد شعبي كبير على مر الأيام كقصص "عنترة وذات الهمة" وربما كان أجملها وأكثرها شيوعاً وانتشاراً قصص "ألف ليلة وليلة" حيث وصلت للغرب تعلن عن سحر الشرق وأسراره وخباياه رغم ما اعتورها من خيال جامح والحوشي من الألفاظ والغريب من الكلم أحياناً إلاَّ أنها حوت معاني شتى لأوصاف الطباع وحدة الذكاء مع الكثير من المساجلات الجميلة والمطايبات ووصف الأحوال الخاصة والعامة.

إلاَّ أن القصص التي تجمع فيها العرض الوافي لحياة العرب وخصائصهم وعلومهم وجملة معالم حضارتهم وما انطبعوا عليه من كريم السجايا وما هم عليه من عقائد وعوائد وما أُثر عنهم من أخبار "كان للمرأة

فيهـا مكانة سامية ومنزلة رفيعة" وما احتوته أيضـاً مـن كشـف لمعـالم التاريخ والمفاخر العربية المبادئ الصالحة وما رووه على ألسنة الطير والحيوان كـ "كليلة ودمنة" الغرض منه تـثقيف الأذهـان وتـنمية المدارك.. إنما هي القصـص التي سوف نتعرض لها لما فيها من نـبل المقصـد وجـليل الغاية وكريم التضحية وعظيـم الشـرف ورفعـة الإيـثار كما الحق والتضحية.

ولمـا كـان لـي على صفحات مجلة "الـثقافة" الغراء سبق تحت هذا العنوان عديد فإنني آثرت العود للحديث في طياتها عن جميل تـلك المآثر المستوحاة من تراث أمتنا الأدبي فـي أسـفاره المـتعددة آملين أن نستعيد من خلالهـا ذلك الألق الذي نحتاج إلى بريقه اليوم ينير لنا ما أظلم من أيامنا، نسترشد به ونعتد، قيمـاً من أصالة العروبة وبعضاً من موروثها الأدبي الحضاري.

وهـأنذا أقدم قصة فيها من الطرفة ما يسر القلب ومن الفكاهة ما يضحك، حدثت في العصر الذهبي للدولة العربية الإسلامية، حيث سـاد الرخاء والمتعة مع القوة والعزة والمنعة دفعـت بسراة الحكم إلى اللهو البريء والعبث المفـرح يضفي على الحياة رونقاً زاهياً ولوناً مـن ألوان الحياة الهانئة والسرور بظل الأمن والأمان..

قيـل: خـرج الخليفة المهدي يتصيد فذهـب فرسه بعيداً عن صحبه حتى وقع على خـباء لأعـرابي فـتقدم منه وحيّاه وقال: يا أعـرابي هل من قِرىً؟ فأخرج له قرص شعير وفضـلة مـن لـبن، فسقاه ثم أتبعه بنبيذ في ركـوة، فسقاه أيضاً، فلما شربه قال الإعرابي أتدري من أنا؟ قال: لا . قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله في موضعك، ثـم سـقاه مرة أخرى فشرب الخليفة وقال: يا إعـرابي أتـدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خـدم أميـر المؤمنين الخاصة. قال: لا أنا من قـواد أميـر المؤمنين. قال الإعرابي: رحبت بلادك وطاب مرادك. ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال: يا إعرابي أتدري من أنا. قال: زعمت أنك مـن قواد أمير المؤمنين. قال: لا ولكنني أمير المؤمـنين. فـأخذ الإعـرابي الركوة فأوكأها "ربطهـا" وقـال: إليـك عني فوالله لو شربت الرابعة لأدعيت أنك رسول الله. فضحك الخليفة المهدي حتى غشي عليه. ثم أحاطت به الخيل ونزلت به الأمراء، فطار قلب الإعرابي فقال له المهدي: لا بأس عليك ولا خوف وطيب خاطره ثم أمر له بكسوة ومال جزيل..




وفتحت أروقة الكلام

شعر: حسان الصاري

قـــالت: أحـــب الشـــعر، قـــلت وهـــل ســـواي عـــليه قـــادر
قـــالت: وتنشـــدني، أم أنـــك مـــثل مـــا قـــالوا محـــاذر
فأجبـــتها والـــليل مـــد جـــناحه ورمى الســـتائر
الشـــعر أنـــت، وكـــل مـــا قـــالوه عـــن عيـــنيك قاصـــر
أنـــت القصـــيدة والـــبحور وأنـــت مـــلهمة الخواطـــر
عيـــناك أجمـــل مـــا رأيـــت، وهـــل يـــلوم الحســـن شـــاعر

*   *   *

لـــو جئتـــني قـــبل المشـــيب لـــزفت الدنيـــا البشـــائر
لـــو جئتـــني والعمـــر مخضـــر ودوح الحـــب ناضـــر
لـــرأيت جـــنات الشـــباب وكـــل مـــا يغـــري الـــنواظر
لكـــن خمســـين الســـنين تقـــول لـــلمغرور حـــاذر
مـــن يـــوم جـــئت إلى (حمـــا) قلـــبي عـــلى الأجفـــان طائـــر
أخـــش رحيـــلك، والـــوداع أحـــر مـــن نـــار المجامـــر
لـــو تســـكنين القـــلب كـــنت أمانـــة عـــند المخاطـــر
يـــا مـــن أتيـــت مـــن الـــبعيد لقـــد فـــتحت لـــي المعابـــر
أنســـيتني حـــتى الـــزمان، فمـــا أفكـــر بالمصـــائر
فـــالأمس رغـــم جحـــوده طيـــف كـــنور الشـــمس غامـــر







والعمـــر أولــــه لقــــاك ومــــن يفكـــر بالأواخــر
لـــولاك مـــا رقـص الحـــنين، ولا تبســـمت المشـــاعر
لــــولاك طـــلقت القصـــيد، وقـــلت للإلهـــام ســـافر

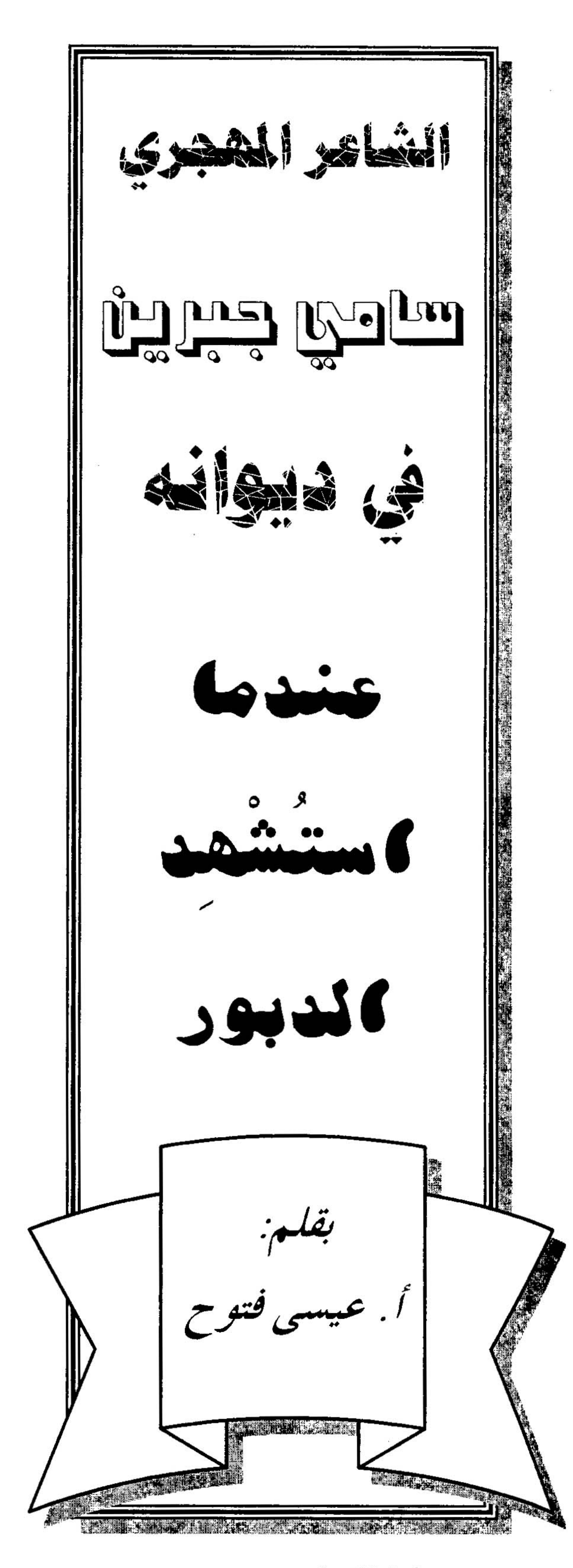
* * *

لا تـــبعدي فالعمــــر قبـــلك ضـــائع والحـــب فاتـــر
مــن قـــبل أن تـــأتي أفـــتش عــنك يـــا عمـــر الأزاهـــر
وأتيـــت فـــارتحل العـــذاب وداعـــب العـــنقود عاصـــر
كـــل الـــذي عـــندي حـــنين ذاب فـــي طـــي الدفاتـــر
هيهـــات يقـــرؤه ســـواك وكيـــف تفتضـــح الســـرائر؟
لـــو ترحـــلين كســـرت أقلامـــي وحطمـــت المحابـــر
ورميـــت للـــنار الضـــروس حـــنين أيـــامي الغوابـــر
وبقيـــت بعـــدك لائـــباً والشـــوق طـــي القـــلب ثائـــر

* * *

هـــلي عـــلى عمـــري القـــتيل وهدهـــدي قلـــبي المصـــابر
وتبســـمي فالأمـــنيات عزيـــزة والعمـــر جائـــر
لســـت البخيـــلة، والكـــريم بطـــبعه جـــم المآثـــر
عيـــناك لـــو غـــم المـــدى كـــانت لأيـــامي مـــنائر
العمـــر قبـــلك مقفـــر والـــدرب لـــو تدريـــن عاثـــر
لا نجمـــة فـــي الأفـــق تهديـــني ولا ليـــلي يســـافر
كـــل الـــذي عـــندي مـــنى تـــذوي وأحـــلام تهاجـــر



الشاعر المهجري سامي جبرين في ديوانه عندما استُشهِد الدبور

بقلم: أ. عيسى فتوح

حيـنما كنت طالباً في المرحلة الثانوية كـنت اسمع الناس في مشتى الحلو والكفرون، يـتحدثون بإعجـاب عـن الأخوين الشاعرين والفـنانين الموهوبيـن سعيد وسامي جبرين، وأنهمـا ينظمان الشعر، ويهويان الأدب والفن والعـزف على الناي والكمان، في محيط ريفي بسـيط، لم يكن فيه وجود للكتاب أو المجلة أو الجـريدة أو للآلة الموسيقية سوى الناي التي أحسنا العزف عليها.

وعـلمت يومـذاك من أبناء عمهما – وكـانوا رفـاقي فـي المدرسة – أنهما غادرا ضـيعتهما "تـبع كركـر" ليدرسـا في إحدى المـدارس الإنجيـلية، وقـد استطاع سعيد أن يـتفوق بعـلمه وذكائه. وينتسب إلى الجامعة الأمـريكية فـي بيروت لدراسة الأدب العربي، وليعمـل بعد تخرجه في إذاعة "صوت أمريكا" بواشـنطن، لكـن العمل الإذاعي استقطب كل نشـاطه، فهجـر الشـعر الذي أبدع فيه أيما إبـداع.. وقـد استطعت أن ألملم نتفاً من هذا الشـعر لأبـني عليه دراسة أدبية نشرتها في مجلة "الثقافة" و جريدة "الأسبوع الأدبي" التي تصدر عن إتحاد الكتاب العرب في دمشق.

* * *

لقـد أسـعدني الحـظ في التعرف إلى هذين الأخوين الشاعرين المبدعين حينما زارا سورية عام ١٩٩٠، فاغتنمت الفرصة لحثهما عـلى نشـر ديوانيهما قبل فوات الأوان.. وكم كـانت فـرحت كبيرة حين اتصل بي الصديق سامي من البرازيل ليزف إليّ خبر عزمه على طـبع ديوانــه، وأن الديوان في طريقه إليّ.. ولمـا تسـلمته عكفـت عـلى قراءة قصائده الطـريفة الـتي أملتها المناسبات الاجتماعية، والـلقاءات والدعـوات الخاصـة والأحـداث الوطـنية الـتي كانت تجد صداها في المهجر الجنوبي.. فقد عاش الأستاذ سامي في المهجر بجسمه، لكن روحه بقيت مرتبطة بالوطن الأم، وظـل يحـن إليه، ويتذكر مرابع طفولته فيه، ويسـعى لزيارته كلما سنحت له الفرصة، فقد ابتسم له الحظ هناك، واختار برازيليا (عاصمة الـبرازيل) مكانـاً لإقامـته، فاختلط بالسفراء العـرب وكـبار الشخصيات العربية والأجنبية

التي لمعت في ميادين الأدب والفكر والفن والاجتماع والتجارة والمال..

* * *

لقد شاء سامي جبرين أن يطلق على ديوانه عنواناً طريفاً هو "عندما استشهد الدبّور" وكلنا يعرف الدبور وقرصاته اللاذعة ووخزاته المؤلمة.. وقد نفذ من خلال دبوره إلى تشخيص الأمراض التي يعاني منها الوطن، وتطرق إلى الزعامات، ومأساة الفكر في الشرق العربي، وإلى صرعة الحداثة في الشعر.. فقد آلمه أن يتراجع الشعر العربي الأصيل، ويتخلّى عن مكانته الرفيعة لما يسمونه الشعر الحديث أو قصيدة النثر ويتساءل:

أهذا النشازُ الكئيبُ الممضّ
هو الشعر في عهده المرتقبْ؟
أيشدو هزارٌ بهذا النشازِ
أيعلو جناحٌ بهذا الزغبْ؟
أذلك شعرٌ؟ أذلك نثرٌ؟
أيُحفظ غيباً؟ أيُدعى أدبْ؟

ويخشى على تراث الأجداد من ذلك الشعر الوليد الممسوخ الذي أوشك أن يزيح الشعر الكلاسيكي ويتربع في مكانه، هذا الشعر الذي هو بحق ديوان العرب وتاريخ مجدهم وعزهم وحضارتهم الخالدة:

فمن سائلٍ عن تراثِ الجدود
أذلك آخرُ ما يُغتصبْ؟
ومن مُظهرٍ أسفاً للعروبةِ
قيل أُصيبتْ بداء الركبْ
طلاسمُ شعرٍ تثيرُ العجبْ
تعيدُ الشتاءَ الذي قد ذهبْ

ويسخر في قصيدته "لم يبقَ للحر إلاّ الخجل" من أولئك الذي يتطاحنون على كراسي الزعامات والوجاهة والمحسوبية، بدافع من أنانيتهم، وتضخم (الأنا) عندهم فيقول:

خلافُ الكراسي خلافُ الوجاهة
فَرْضُ (الأنا) بالدليلِ الأدلّ

وينتقد بمرارة من اعترفوا بالهزيمة أمام العدو المغتصب دون حياء أو خجل، وطلبوا الصلح معه بلا حرب أو إراقة نقطة من الدماء:

قد اجتمع القومُ في "فاس" يوماً
أقروا الهزيمةَ دون الوجلْ
وقالوا: نبادر ذاك العدوّ
اللئيمَ بصلحٍ كشهر العسلْ

كما ينتقد أيضاً مأساة الفكر في شرقنا العربي، هذا الفكر الذي قضى نحبه أو رحل عنا، أو كسر جناحُهُ، أو اعتقل، قائلا:

على الفكرِ في شرقنا لا تسلْ
فإمّا قضى نحبه أو رحلْ
تولى كئيباً مهيضَ الجناحِ
كمن مضَّه العيشُ في معتقل
وما الفكرُ في أمةٍ لم تزلْ
تعيش بعقدةِ "فرّقْ تنلْ"
يُنادى علينا بجمع الصفوفَ
فنكثرُ في القولِ دونَ العملْ

ويسخر من تقليدنا الأعمى للغرب الذي أفسد ميراثنا، وأغرقنا بأضاليله وترهاته وصرعاته، وأوهمنا ببريق حضارته المزيفة:

لكم أفسد الغربُ ميراثنا
نعيشُ أضاليلهم يا خجلْ!
أقمنا الحضارةَ نقفو خطاهمْ
حضارة "قلّدْ أخاكَ الخجلْ"!

ويشيد أخيراً بفضل العرب الذين أضاؤوا الدنيا شرقاً وغرباً، فعاشوا كراماً، وخلّدهم التاريخ، فأين نحن منهم اليوم؟

يُحدّثُ عن فضلِ أسلافنا
أضاؤوا البرايا بعصر الجملْ

أولـئك "لا نحـن" عاشـوا كراماً
وحـلوا كـراماً ديـارَ الأزلْ
فيـا ربَّ يـومٍ يعـود الإبـاءُ
كمـا كـان قِدْمـاً رداءَ البطلْ

وينهي القسم الأول من ديوانه بقصيدة طويلة - كأكثر قصائده - "هل نحن مع سلطان" التي ألقاها في الحفلة التأبينية التي أقيمت للمجاهد سلطان باشا الأطرش في النادي الحمصي بسانباولو في ١٩٨٢/٥/٥، وأشاد فيها بمآثره وبطولاته قائلاً:

يـا للنعيّ مؤبنـاً بطـلَ العـربْ
كتبوا أذاعـوا مـن مآثره العجبْ
مـن كـان في الجلّى لأمتهِ الأرب
مـن قـاد ثورتهـا عظيمـاً سيدا
لا عـاش من جحدوا لفارسهم يدا

* * *

ثم ينتقل في القسم الثاني من الديوان إلى شعر الحب والغزل والمرح والفكاهة والدعابة.. وأي شاعر لم يفتنه جمال الوجه، وحلاوة الثغر، ولمى الشفاه التي يطيب له الموت على ضفافها:

أرنـو للـثغر فيوجعـني
تـباً لحلاوتـه نصـلا
أتـأمل وجهـاً كالدنيـا
قـد يوصـف جـوداً أو بخـلا
حـواء تُعـدّ أنوثـتها
ومفـاتنَ جنـتها الأولى
فـالموت عـلى الشـفة العـليا
يحـلو كالموت على الشفة السفلى

ولزوجته السيدة "تجلاء الحلو" نصيب وافر من قصائده الطريفة، ولعل أطرفها قصته معها يوم فاجأته بالدعوة لحضور حفلة راقصة مع بعض الأصدقاء لإحياء ذكرى زواجهما الحادي والعشرين، فاستنكر الدعوة، ليس لأنها لم تعلمه بها من قبل، بل لأنه ليس من هواة الرقص، فقال على لسانها:

لـنا موعـدٌ فـي غـد يـا حبيبي
نجـدّد للقـلبِ مـا زال حيـا
سـندعو الأصـيلَ وشمسَ الأصيلِ
لمـلهى الشـباب فكـن حاتميـا
ونشـرب كأسـاً تعيـدُ الشـباب
ونـرقص حـتى تغيـب الـثريا
فقـلت لهـا يـا ابـنة العـمّ رفقاً
كـأني بشـعري أتيـت فـريا..
ذريـني مـن الـرقصِ يـا منيتي
فـبعضُ التمـني كسـكر الحميّـا
ومـن لـلعظام إذا أيـنعت
يحيـيّ خـريفاً عجـولاً حييـا

وتتجلى الطرافة والدعابة وخفة الروح أكثر ما تتجلى في قصيدته "مرآة الحلاق" يوم جلس على كرسيه ليصلح لمته، فغيّر مقصه في دقائق شكله، وأضاع فتوته، ولم يعد يصدق أنه هو نفسه، ذلك الشاب الوسيم الذي كان يسرح ويمرح مع الصبايا في قريته "تبع كركر" ويسمعهن أنغام شبابته:

جلسـتُ إلى الحـلاقِ أصـلح لمـتي
فأنكـرت فـي المرآة نفسي ولي عذري
أهـذا أنـا حقـاً؟ وتـلك بقيـتي
ثمالـةُ مـا فـي الكأس من طيّب العمر
أذاك غـلامُ الأمـس و "النـبع" قريتي
و "كركرها" الرقراق مهدُ الهوى العذري
نفخـت بهـا نـايي أبـثُّ صـبابتي
فـرددها الـوادي طـروباً مـع النهر
وقـد قيـل عـني عاشـقٌ ودلالـتي
بـأن الهـوى العـذريّ يسـكرُ كالخمر

كمـا يتجلى الظرف وحلاوة النكتة في قصـيدته "مـرتي وأنا والدبور" التي أجاد بها

وصف عادات زوجته وطباعها، وحلل فلسفتها في الحياة.. فهي دائماً - كما يقول - وراءه وأمامه، تمطره بعلمها وفلسفتها الخاصة، وتفحمه بأجوبتها، التي هي أشبه بمنطق السجّان:

إنها زوجتي فطبْ يا زماني
فلسَفَ اللهُ رأسَها وابتلاني
إنها.. إنها ورائي أمامي
كالكثيرِ كالقليلِ كالإدمانِ
لو تثاءبتُ للكرى أيقظتني
بكلامٍ مبطنٍ ومعانِ
لو تساءلتُ: ما جرى أفحمتني
بجوابٍ كمنطقِ السجّانِ!
تدّعي العلمَ بالذي في خيالي
والذي في قرارةِ الوجدانِ
أكفني من لسانها يا إلهي
فهو كالسوطِ لاذعٌ في كياني

وأطرف ما في ديوانه قصيدته التي بعث بها إلى أخيه الشاعر الصامت سعيد جبرين الذي هجر نظم الشعر - وهو الشاعر المبدع والعازف الماهر - وانصرف إلى مشاركة زوجته الأميركية، في شيّ اللحوم، وقلي الأسماك، وطبخ الأرز المحمّر.. يقول:

تساءلتُ عن أحوالهِ ومآلهِ
فقال: تقاعدنا برتبةِ أبطالِ
فقلتُ: ولكنّ ما أمامكَ يا أخي
فقال: أمامي مطبخٌ ومجالِ
وأطمعني أشهى الطعام عجبتُ من
مهارتهِ بالطبخِ لستُ أغالي
لحوماً وأسماكاً، أرزاً محمراً
شواءً ومطهواً، وبعضَ مقالِ
فتى شاعرٌ يطهو الطعامَ لضيفه
ويفصحُ بـ "المريول" عن واقعِ الحالِ
تساءلت: ما للشعر جف مدادهُ؟
فقال: لقد أودى وكان موالي..

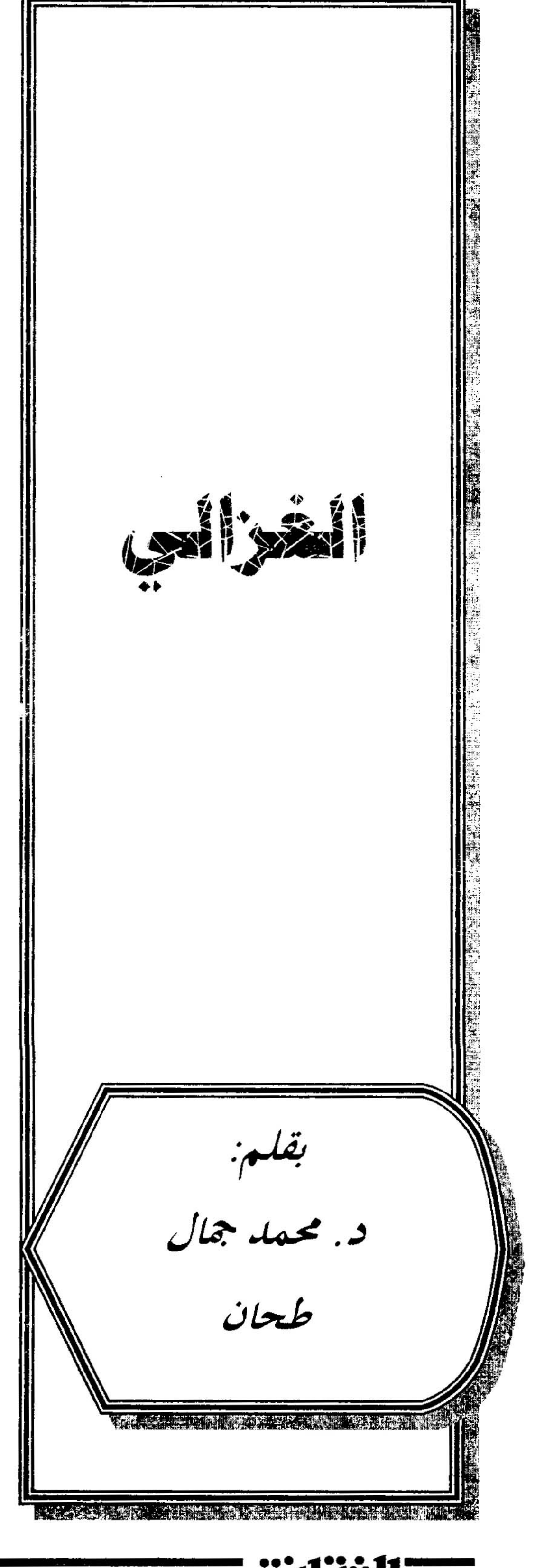
ليس سامي جبرين شاعراً بالفصحى فحسب، بل هو شاعر أيضاً باللغة المحكية.. وفي ديوانه قصيدة واحدة بهذه اللغة نظمها صيف عام ١٩٩٠ حين زار الوطن مع أخيه الشاعر سعيد بعد هجرة امتدت نصف قرن، وقد عبر فيها عن شوقه وحنينه وفرحته العارمة بلقاء الأهل والأحبة والخلان، ومشاهدة ربوع القرية الوادعة الجميلة التي احتضنت طفولته، ومنها قوله:

رجعنا عالضيعهْ مطرحْ ما ربينا
شربنا مويّتها، سكرنا وما روينا
ولما بخضرتها اكتحلت عينينا
تذكرنا الماضي وأهل الربونا
رجعنا عالنبع نعبي خوابينا
ننسى غربتنا ونذكر ماضينا
تقبرها غربة ومعها ملايينا
طلة هالوادي بتسوى المسكونا

* * *

إن شعر سامي جبرين يتميز بالصدق والبساطة والوضوح والعفوية، ولذلك فهو يتغلغل في القلب، ويستقر في أعماق الوجدان.. كما أنه يتسم بالطرافة والميل إلى استخدام الدعابة والفكاهة والمرح وإيراد النكتة، التي تحمل البسمة إلى الشفاه، وتبهج القلب، وتروح عن النفس، وتشيع الغبطة عند القارئ.

ولو لم تشغله أعماله التجارية، عن نظم الشعر - كأكثر شعراء المهجر - لرفد المكتبة العربية بأكثر من ديوان.. ويكفي أن هذا الديوان كان حصاد عمره وخلاصة تجاربه، وحصيلة ما نظم.. وكل ما نأمل أن يكون صدوره حافزاً لأخيه سعيد ليدفع بديوانه إلى الطبع، بعد طول انتظار..



سعى الفلاسفة العقليون في البلاد العربية والإسلامية إلى التوفيق بين العقل والنقل، والتأليف بين الفلسفة والدين. ومال الفلاسفة الانتقاديون إلى تغليب النظر على الإيمان. وإذ ذاك ظهر الغزالي يدعو إلى إيمان بسيط خال من التعقيد، إيمان استسلام وعبادة وفناء في الله ومحبته.

انبرى الغزالي بمؤلّفه (تهافت الفلاسفة) للهجوم على المشائيّة الشرقيّة، ولا سيما الفارابي وابن سينا. وقد هاجم بعنف، القول بخلود العالم وأزليته، وقانونيته.

إن الله عنده، قد خلق العالم من عدم، والمشيئة الإلهية تتدخل دوماً في مجريات الأمور.

والغزالي، كالأشعري، ينكر السببية في الطبيعة، فما ندعوه من رابطة سببية ليس إلاّ ما اعتدنا عليه من تعاقب زمني للأحداث والظواهر.

حارب الغزالي الفلاسفة، ونقد المتكلّمين، لكنّه هاجم بعنف شديد الباطنية.

وتحدّث الغزالي عن صراعه الباطني في سبيل الكشف عن الحقيقة ووجد أن أصناف الطالبين تنحصر في فرق أربع، اختار نهج إحداها، وهي فرقة المتصوفين.

وجرى في معارج الشك المنهجي في المحسوسات ثم في المعقولات.

ثم راح ينقد الفرق، فاعترف للمتكلمين بأنهم أجادوا النضال عن العقيدة المقبولة من النبوة، ولكنّه عابهم في اعتمادهم على بعض مسلّمات الخصوم.

حارب الغزالي المتكلّمين بلغة الفلاسفة، وحارب الفلسفة بلغتها، فشرح مقاصد الفلاسفة وكأنّه أحدهم، ثم عمد إلى الردّ عليهم في كتابه (تهافت الفلاسفة) فالفلاسفة عنده ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

أولاً – الدهريون: وهم الزنادقة الذين يقولون أن العالم وجد نفسه، والحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان. كذلك كان وكذلك يكون أبداً.

ثانياً – الطبيعيون: زنادقة أيضاً، آمنوا بالله وصفاته وجحدوا باليوم الآخر.

ثالثاً – الإلهيون: وهم المتآزرون مع الفلاسفة، مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وقد كشفوا أخطاء بعضهم، فكفَّرهم الغزالي لبدَعهم وكفر أتباعهم.

وقد كفَّر الغزالي الفلاسفة في مسائل ثلاث، قولهم:

أولاً – إن الأجساد لا تُحشر.

ثانياً – إن الله يعلم الكليّات دون الجزئيّات.

ثالثاً – إنّ العالم قديم أزلي.

وقد كان الغزالي، مع ذلك، متسامحاً مع الفلسفة غير أنه استعلى في دعوته إلى ضرورة لجم العوام عن علم الكلام، وأوجب عليهم التسليم لأهل المعرفة.

فهو يزن للخاصة بميزان نقد عاقل يعتمد الدليل والبرهان، ويزن للعامة بميزان توجيه هادف يعتمد التأثير بالإقناع والإفهام.

ثم ينتهي الغزالي إلى طريق (الصوفية) يعترف لهم بأنهم أهل علم وعمل وأن حاصل علومهم السمو بالنفس.

وهذا الانحياز للتصوف لم يمنع الغزالي، وهو فيلسوف عقلي، من نقد شوائب القول بالحلول وبالاتحاد وبوحدة الوجود، وبكل ما يُبعد عن جادة الإسلام الصحيح.

ولد أبو حامد محمد الغزالي سنة ألف وتسعة وخمسين في الغزالة وهي بلدة قرب طوس في خراسان. ظهرت عبقريته منذ صغره فأتقن الفقه واللغة وسافر إلى جرجان حيث درس على أبي نصر الإسماعيلي، وعاد إلى طوس، ويروي الغزالي أنه في طريق عودته، قطع عليه اللصوص الطريق وسرقوه، فاسترحمهم أن يعيدوا إليه كتبه لأن فيها قوتَ علمه، فضحك منه اللصوص لأنه لم يحفظ ما فيها وأعادوها إليه، فعاهد نفسه أن يحفظ علمَه وكُتُبَه كلَّها، حتى إذا سُرقت ما ضاع عليه شيء.

سافر إلى نيسابور وأخذ الفقه على الجويني، ويقال إنه ألَّف كتاباً في الفقه وطلب من أستاذه أن يقرأه، وما أن أنهى قراءة ما ألّف تلميذُه حتى قال له: (دفنتني وأنا حي).

وحين ذهب إلى الوزير السلجوقي نظام المُلك، ولاّه الوزير التدريس في مدرسته النظامية ببغداد. واتسعت شهرته، وأقبل الناس يجنون العلم منه. وإذا به يشكو – فجأةً – علةً مجهولة أعيت الأطبّاء، فخرج من بغداد تاركاً مُلكَه وقفاً، نابذاً شهرته، هارباً من وساوسه، ينشد الرّاحة في ظل العزلة والإيمان، وقصد بيت الله الحرام، وقفل إلى دمشق مجاهداً في عبادته، مختلفاً إلى الزاوية المعروفة باسمه في المسجد الأموي، يصلّي ويقهر شهوات

نفســه. ثـم انقـلب إلى خُراسان ودرَّس في نيسابور، ثم عاد إلى طوس.

وكثرت بعد ذلك مؤلّفاته في الردّ على مذاهـب عصره، حيث كتب (مقاصد الفلاسفة) ليـبرهن عـلى إحاطـته بعلمَي الفارابي وابن سينا، وأشار فيه إلى أخطاء الفلاسفة. ثم جاء كـتابه (تهـافت الفلاسفة) الذي شكّك ببراهين الفلاسـفة ونظرياتهم. ثم مرّ بأزمة شكّ ظهر بعدهـا كـتابه (المنقذ من الضلال) الذي يشبه السـيرة الذاتيـة. ثم انقلب إلى التصوّف حتى توفّـاه الله. تـرك الغزالي مؤلّفات كثيرة وأثراً عميقـاً فـي الفكر العربي بعد أن برع في علم الكلام، وحاول أن يهدم أركان الفلسفة.

* * *

بنى الغزالي تصوّفه على إيمان يقيني بـالله تعـالى، وبالنبوّة، وباليوم الآخر. وركّز عـلى إتمام فرائض الشرع، فلا يجوز لأحد أن يعفي نفسه منها.

والغـزالي، في الربع الأوّل من كتابه (إحيـاء عـلوم الديـن)، يـبحث في العبادات ويدرس شروطها الخارجية ثم يطلب أن يسمو المؤمـن بهـا إلى الغايـة الـتي من وُضعت مـن أجـلها فـلا يـتوقّف عند القشور دون اللـباب. فالطهـارة ليسـت وضـوءاً ونظافة جسـميّة وحسب، بل هي أوّلاً تطهر القلب من الـرذائل. والصلاة ليست تمتمة كلام وركوعاً فحسـب، بل هي مناجاة الله بالقلب والنفس ثم باللسان.

ولكـل فـرض روحانيّة خاصّة، على المؤمن أن يتفهّمها، وإلاّ لم ينفذ إلى روح ذلك الفـرض. هـذه الروحانيّة الصوفيّة لم يُدخلها الغـزالي فـي العـبادات فحسب، بل في جميع الأعمال التي يقوم بها المؤمن.

وفـي قسـم العادات من كتابه إحياء عـلوم الدين، يبحث في أصول الأكل والكسب والصحبة، والمعاشرة والسفر وغيرها، شارحاً آداب كـلٍّ منها، ومتقيّداً بمبادئ الدين والعقل فيها.

أم فـي قسم المهلِكات فإننا نراه يطلب تطهيـر القـلب استعداداً لسلوك الطريق. فهو يحـدّد عيوب الشهوات وآفات اللسان والغضب والحقد والحسد والمال، مبيّناً أسبابها، ويصف طرائق معالجتها.

بعـد تـنقية القلب يستطيع المريد أن يقطـع المقامات ليرتقي من الزهد إلى حب الله إلى الفناء في الله إلى الإلهام. وحال الزهد عند الغزالي هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هـو خيـر منه، أو ترك المحبوب إلى ما هو أحـبّ منه، وهو عدول عن الدنيا إلى الآخرة، أو عدول عن غير الله إلى الله.

يـبدو أن الغـزالي هو أول الفلاسفة العـرب الذيـن اعتمدوا الشك المنهجي لبلوغ اليقيـن، وهـو بذلـك سبق ديكارت بأكثر من خمسـمائة عام. صاحب المقولة الشهيرة (أنا أشك إذن أنا موجود).

لقـد تنبّه الغزالي إلى مخاطر المنطق ومـزالق الضلال التي تنتاب الباحث كلّما سعى إلى الحقيقة عن طريق العقل وحده.

وبدلاً من تركيز الغزالي على المعرفة بواسـطة العقـل، راح يركّـز المعـرفة على الإيمان، فاتّخذ نورَ الإيمان، الذي يقذفه الله في الصدر، نقطة الانطلاق ومبدأ المعرفة.

خامرت الغزالي الشكوك من عهد الصبا فنظر إلى المذاهب في اختلافها، ولاحظ أن أولاد اليهود يتهوّدون، وأولاد النصارى يتنصّرون، وينشأ أولاد المسلمين على الإسلام، وذلك يكون بالاتّباع والتقليد. ورأى أن الاستمرار في التقليد لا يورث النفس اليقين.

ثم راح يستكشف أسرار الفِرَق، فلم تشفِ غليله، لأنّه يبتغي العلمَ اليقيني الذي لا يشوبه ريب.

لقد طلبه الغزالي في التقليد فلم يجده، فافترض وجودَه في المحسوسات، وجعل يتأمّل المحسوسات متسائلاً: "هل يمكنني أن أشكّك نفسي فيها"؟ ثم رأى أن حاكم الحس يقرّر حقيقة لا يلبث حاكم العقل أن يكذّبها وينفيها. فتناول الغزالي البديهيات العقلية، مثل قولنا إن العشرة أكثر من الثلاثة، أو قولنا إن الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً معاً، أو موجوداً ومعدوماً معاً.

وبينما كان الغزالي يبحث عن اليقين في هذه البديهيات، عارضته المحسوسات تقول: كنتَ واثقاً بي، فجاء حاكم العقل فكذّبني، وها أنت الآن تثق بالعقل، ولكنْ، قد يكون وراء العقل حاكماً آخر يكذّبه، فقد تكون الحياة بأسرها حلماً فلا ينكشف الحق إلاَّ بعد الموت.

ودام الغزالي في شكوكه حتى قذف الله في صدره نوراً علوياً خلّصه من ريبته، وبعث في نفسه الطمأنينة عن طريق الكشف الذي وجده الغزالي مفتاحاً للمعرفة.

ولن يؤتى هذا المفتاح إلاّ لمن آمن بالنبوّة، وأقرّ بوجود طور فوق طور العقل، تتفتّح فيه المدارك الخاصّة.

هذه هي حكاية الغزالي كما وردت في كتابه (المنقذ من الضلال).

ولهذا العلم اليقيني طبيعة ذاتية حدسيّة بحتة، فهو لم ينشأ من العقل أو عن طقوس الشرع، وإنما هو تجربة روحية، قلبية، ذوقية. والذوق وليد الإلهام الذي يشبه إلهام الأنبياء. وهذا الإلهام يؤتى بالتوكّل الذي يبنيه الإيمان، الذي هو قوام اليقين. وأصحاب الذوق الصوفي يبلغون حال المكاشفة فتكون لهم كرامات الأولياء.

هكذا انتهى الغزالي إلى أن العقل عاجز عن حلّ المعضلات الإلهية، وأن اليقين يكون بالإيمان الذي يرتكز على الكشف الباطني الذي هو مفتاح السعادة والمعرفة الحقّة.

بعد أن وضع الغزالي أصول شكّه المنهجي ساعياً وراء مبدأ ثابت يبلغه العلم اليقيني، بدأ يقيّم أساليب العلم في عصره، ويبحث في معارف الطالبين والنتائج الفكرية التي انتهوا إليها، فقسم أصناف الطالبين إلى أربع فرق: "المتكلّمون، وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر، والباطنية، وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من المعلّم المعصوم. والفلاسفة، وهم يزعمون أنّهم أصلُ المنطق والبرهان. والصوفيّة، وهم يدّعون أنّهم خواصّ الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة".

ثم عمد الغزالي إلى دراسة كل فئة

مبيّناً رأيه في كلّ منها، وخلص - كما رأينا في الحلقة السابقة - إلى ضرورة لجم العوام عن علم الكلام، لأنّ حاجة الجمهور إنما هي إلى الإيمان لا إلى الجدل، وحاول أن يثبت في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد) أن ما ينتهي إليه العقل لا يناقض الشريعة الإلهية، مع الإقرار بأن العقل الإنساني لا يستطيع الارتقاء إلى معرفة الله بوسائله الخاصّة، وأنه يقصّر عن تقدير نِعَم الله التي لا تُحصى.

رد الغزالي على الباطنية في الاعتراض على مبدأ الحكم بالنص أو بالاجتهاد بالاحتكام إلى النص القرآني عند وجوده، بقولهم: "كيف تحكمون في مالم تسمعوه، أ بالنص ولم تسمعوه، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنَّة الخلاف" ردّ الغزالي على ذلك من خلال مطالبته بالاحتكام إلى النص القرآني عند وجوده، فإذا عرض لنا أمر ليس فيه نصّ قرآني فلا بأس من الأخذ بالاجتهاد، وبيّن ضرورة الاجتهاد بقوله: "إن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية" وللمخطئ في الاجتهاد أجر وللمصيب أجران.

وحمل الغزالي على الفلاسفة فجعلهم أصنافاً ثلاثة:

دهريين، وطبيعيين، والهيين. ثم بيّن موقفه من كل فئة منهم. أما الدهريون فعدّهم زنادقة لأنّهم جحدوا الله، وزعموا أن العالم موجود بنفسه. وكذلك وصف الطبيعيين الذين اعترفوا بوجود الله، ولكنّهم جحدوا الآخرة وأنكروا الثواب والعقاب، فانهمكوا في شهوات الدنيا.

وأما الإلهيون، وفيهم سقراط وأفلاطون وارسطو وابن سينا والفارابي، وقد تكلمنا عليهم جميعاً في حلقات سابقة، فقد كفّرهم الغزالي بحجّة أنهم لم يستطيعوا التخلّص من رذائل الدهريين والطبيعيين وبِدعاتهم. وعمد إلى مناظرة الفلاسفة بأسلوبهم ليهدم نظريّاتهم ويثبت عجز الفلسفة عن بلوغ الحقيقة الإيمانيّة، داعياً إلى الإيمان الروحي من خلال الفصل بين الشريعة والحكمة.

ثم يردُ على القائلين بمبدأ السببية: ".. ليس لهم من دليل إلاَّ مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار، والمشاهدة تدلّ على الحصول عند الملاقاة، ولا تدلّ على الحصول به".

إنّ القائلين بمبدأ السببية قد شاهدوا الأشياء متعاقبة على نحوٍ معين، فتكون الحادثة الأولى وتتبعها الحادثة التالية على الأثر فتهيّأ لهم أنّ الأولى علّةُ الثانية حتماً. ولكن هذا الاقتران ليس ضرورة من الضرورات الدائمة، وإن إثباتنا لإحدى الحادثتين لا يحتّم إثباتنا للأخرى؛ ولا يحتم نفيُها نفيَ الأخرى. فالاحتراق، مثلاً، لا يدل على أنّ الاحتراق قد حصل بالنَّار، بل يدلّ على حصوله عند ملاقاة النار، أي مع النّار.

ذلك أنّ الطبيعة، وكل ما في الطبيعة، لا يستطيع إتياناً بفعل، لأن الفعلَ يقتضي سابق إرادة حرّة، واختيار كامل، وعلم شامل؛ وليس للطبيعة إرادة حرّة، أو اختيار كامل أو علم شامل؛ وبالتالي فهي لا تفعل؛ وإنما الفاعل هو الذي جعل فيها خصائصَها، وعن إرادته وحدها

يصدر الفعلُ وهو وحده الفاعل. وإذا قيل إنّ الطبيعة تعمل، فذلك يُقال منّا على سبيل المجاز. أمّا كيفيّةُ هذا التعاقب وغاياته وسرّه فأمور تخرج كلُّها عن إدراكنا، ولا تتّسع لها القوى البشرية.

ولم يَغب عن الغزالي أنّ إنكار السببية قد يُفضي إلى ارتكاب المُحالات المستقبَحة، بحيث "يجوز عندنا انقلابُ الكتاب حيواناً وجرّةُ الماء شجرةَ تفاح"؛ غير أنّه شاء أن يُخضِع كلَّ إدراك عقلي للإيمان، وكلُّ فعلٍ جزئي للإرادة الإلهية. فإرادته تعالى هي التي اقتضت وجودَ هذا العالم، ولذا فهو يعرفُ كلَّ ما في العالم.

وهكذا، فاستمرارُ العادة في جريان الأشياء على وتيرة واحدة، يرسّخ في أذهاننا أنّها ماضيةٌ على حالها حتّى النّهاية؛ وتتابُع الأمور على هذا النحو في رأيه ليس ضرورياً بالحتم؛ إنّه ممكن، يجوز أن يقعَ ويجوز أن لا يقع. فالغزالي مؤمن بأنّ العالم لا يسري على نمط واحدٍ دائم مدى الدهر، وأنّ الإرادة الإلهية تستطيع تحويلَ ما فيه.

ومن قبيل هذا التحوّل النبوّة؛ فإنّ الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حقّ الأنبياء. وأبين المعجزات كتابُ الله الذي "ثبت كونُهُ معجزاً بطريق الحسّ والاعتبار لكل إنسان وُجدَ ويوُجَدُ إلى يوم القيامة" ؛ وبوضع الشرائع الملائمة للحق كانت سعادةُ الخَلْق.

يتبين من هذا كلّه أنّ موقف الغزالي مناقضٌ لموقف الفلاسفة؛ فهو يخضع العقل والعلم للإيمان دفاعاً عن الدين، ويُرجِع المُحالاتِ العقليّة إلى المعرفة التي لا تكون إلاّ عن طريق التسليم الروحي والكشف الباطني.

لمّا فرغ الغزالي من هذه العلوم، وأقبل على طريق الصوفية، وافق إقباله عليها هذا النزاعَ العميق، بين شهوات الدنيا، ومنادي الإيمان؛ وقد بان له أنّ القلبَ لم يتجافَ عن دار الغرور، وأنّه مشغولٌ بالجّاه وعلائق الدنيا. ومازال في دائه حتى وطّن النفس على مغادرة بغداد، فدخل الشام يطلبُ العزلة والرياضة والمجاهدة، يعتكف في منارة المسجد طوال النهار؛ ثم سار إلى بيت المقدس فالحجاز؛ ودام على ذلك عشر سنين، حتى انكشفت له حقيقةُ التصوّف على الوجه التالي:

- تتم طريقة التصوّف في رأيه بعلم وعمل؛ والعلم أيسر، غير أنّه لا يُفضي إلى تفهم التصوّف على الوجه الحقيقي. فالفرق بين من يعرف حقيقةَ الزهد وشروطه وأسبابه، وبين من كانت حاله حال الزُّهّاد، كالفرق بين من يُدرك أسباب السُكْرِ، ومَنْ كان حالَهُ السُكر.

إن أخصَّ خواصّ المتصوّفة لا يمن الوصول إليها بالتعلّم، بل بالذوق والحال وتبدُّل الصفات، لاعتباره أنّ الصوفيّة "أربابُ أحوال لا أصحاب أقوال".

- أقبل الغزالي على التصوّف وفي نفسه "إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر" فعلم أنّ الصوفيّة يسلكون طريقَ الله، فسيرتُهم أحسنَ السيَر، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وكلُّ ما في ظاهرهم وباطنهم مقتبسٌ "من نور مشكاة النبوّة، وليس وراءَ نورِ النبوّةِ على وجهِ الأرض نورٌ يستضاء به" فطريقهم سبيلٌ إلى تطهير القلب، وإلى استغراقه بذكر الله فالفناء بالكليّة في الله.

ورأى الغزالي أنّ للمتصوّفة في أحوالهم مكاشفات ومشاهدات، يرتقون بها فيشاهدون الملائكةَ في يقظتهم وأرواحَ الأنبياء، "يسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد". وهذه حالةٌ يتعذّر التعبيرُ عنها، وليس للذي بلغها إلاّ أن يقول:

وكانَ ما كانَ ممّا لستُ أذكرُهُ

فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ

والذي لم يُرزَق نعمةَ هذا الذّوق الروحي لا يعرفُ من حقيقةِ النبوّة غيرَ اسمها. وهذه المكاشفات هيَ من كرامات الأولياء. والكرامات "بداياتُ الأنبياء". ثم يضيف الغزالي إلى هذا قوله بأنّ التحقيقَ في شأن هذه الحال علم، وملابسة تلك الحال ذوق، وقبوله عن طريق التداول بظنٍّ حسنٍ إيمان. وفي مثل هذا الذوق مرّ النبيُّ حين أقبل إلى "حراء" حتى قالت العرب: إن محمَّداً عشقَ ربَّهُ"

غير أنّ للغزالي مآخذَ على المبادئ الفلسفية في التصوّف، إذ تهيّأ للمتصوّفة في قربهم ومشاهداتهم وأذواقِهم أنَّهم بلغوا الحلول والاتحاد والوصول، وكلُّ ذلك خطأٌ في رأيه.

هكذا انتهى الغزالي، بعد هذا الصرع الفكري الروحي، إلى التصوّف؛ ولكنَّهُ تصوُّفٌ معتدلٌ مرتَهنٌ بالعقيدة والنبوَّة، فإنَّه يُنكِر على مذهبهم أبرزَ مبادئه الفلسفية، فيدحض الحلولَ، والاتحاد، والفناء، والوصول، ويردّ نظرية وحدَةِ الوجود.

ثم جاء بحثُ الغزالي في النبوّة نقطةَ الانطلاق ونهايةَ المطاف معاً. فعلى ضوء الإيمان بها بنى منهجيّة تفكيره، وهدم الفلسفة، وناقش سائر الفرَق؛ وبها اهتدى إلى راحةِ اليقين. ولعلَّ أوضح ما أورده بهذا الصدد فصلٌ عقدَهُ في نهاية المنقذ من الضلال ضمّنه خلاصة رأيه فيها.

فهو يرى أنّ الإنسان خُلق ساذجاً، ووُهب طاقة الإدراك المتدرّج من الحواس إلى التمييز، فإلى العقل الذي يدرك الواجبَ والجائزَ والمستحيل. وكما يقصّر النظرُ عن إدراك المسموعات، كذلك يعجزُ العقل عن تفهّم ما هو وراء طوره، ممّا ينطوي عليه المستقبلُ والغيب. ولكن ما هو السبيل إلى إدراك النبوة، والعقل مقصّر عنها؟ لقد مُنح الإنسان خاصيَّةَ النبوّةِ في "النوم" حيث يُطِلُّ على طَوْرٍ غيبيّ يأتيه صراحةً أو عن طريق المثال.

* * *

هذه هي بعض أفكار الغزالي الذي نشأ على التصوّف، وتدارس علمَ الكلام، وأوغل في طلب الفلسفة، فجاءت حصيلةُ تفكيره مزيجاً من هذا كلِّه: أمّا التصوف، فقد بحثه في ضوء العمل التقوي المرتهن بالدين، وبسط فيه الخروج من آلية الفرائض وظواهرها، إلى مرتفعات الصلاة وارتقاء الروح؛ وعرضَ للعمل الصوفي؛ وفيه النزاع القائم بين ميلٍ إلى الدنيا وصفاء قلب المَشُوق إلى حبّ الله، يقترب منه بالتوبة، والصبر، والفقر، والرجاء، والتوحيد، والتوكل، والمحبة، والرضا. وأمّا الكلامُ فحصر فيه حقَّ التأويل بالراسخينَ في العلم، ونهى العامة إلاّ عن الأخذ بالآيات القرآنية والأحاديث، ودعا إلى التقديس، فالتصديق، فالاعتراف بالعجز، فالسكوت، فالإمساك، فالكفّ، ثم التسليم لأهل المعرفة؛

ومجمل أقواله فيه مردودٌ إلى التسليم بحقيقة النبوة، والاعتراف بقصور العقل عن إدراك الغيبيات لأنّها وراءَ طَوْرِه. وأمّا فما روت غليل نفسه، فسفّه أقوالَ أربابِها وبدَّعهم في أمور، وكفّرهم في أخرى.

واكتنفته غمرة الشكوك، واحتواه ألم مرير، وانبرى يبحث عن منفذ يقوده إلى الطمأنينة القريرة، فلم يجد غير الإيمان والبنوّة هاديًان والتصوّفُ العملي سبيلاً.

* * *

لنلاحظ معاً عظمة أجدادنا وقدراتهم العظيمة من خلال بعضِ النصوص التي كُتبت قبل ألف عام من الآن.

وللتدليل على ذلك نقتطف بعضَ ما نحتاج إليه مما ورد في كتاب الغزالي الذي يحمل عنوان (رسالة أيها الولد): "أيها الولد! النصيحة سهلة، والمُشكلُ قَبولُها، لأنّها في مذاقِ متّبعي الهوى مُرَّةٌ، إذ المناهي محبوبةٌ في قلوبهم، وعلى الخصوص لمن كان طالبَ العلم الرسميّ..

أيها الولد.. العلمُ بلا عملٍ جنون، والعملُ بغير علمٍ لا يكون.

أيها الولد! ينبغي لك أن يكونَ قولُك وفعلُك موافقاً للشرع؛ إذ العلمُ والعملُ بلا اقتداء الشرع ضلالة..

واعلم أن اللسان المطلَق، والقلبَ المطبَقَ، المملوء بالغفلة والشهوة، علامةُ الشقاوة، فإذا لم تقتل النَّفْسَ بصدق المجاهدة، لن يحيا قلبُك بأنوار المعرفة.

أيها الولد! إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلْها منّي لئلاّ يكون عِلمُكَ خصماً عليك يوم القيامة. تعملُ منها أربعةً، وتدعُ منها أربعةً:

أمّا اللواتي تدع، فأحدهما: أن لا تناظرَ أحداً في مسألة ما استطعت.

والثاني: مما تدع، وهو أن تحذر من أن تكون واعظاً ومذكِّراً، لأنّ فيه آفات كثيرة، إلاّ أن تعمل بما تقول أوّلاً، ثم تعظ به الناس..

والثالث: مما تدع، أن لا تخالط الأمراءَ والسلاطين ولا تراهم، لأن رؤيتَهم ومخالطتهم آفةٌ عظيمة؛ ولو ابتليت بها دعْ عنكَ مدحَهم وثناءَهم، لأن الله تعالى يغضبُ إذا مُدِحَ الفاسقُ والظالم. ومن دعا لطولِ بقائهم، فقد أحبّ أن يُعصى الله في أرضه.

والرابعُ: مما تدع، أن لا تقبلَ شيئاً من عطاء الأمراء وهداياهم، وإن علمتَ أنها في الحلال، لأن الطمعَ منهم يفسدُ الدين؛ لأنّه يتولّدُ منه المداهنة ومراعاةُ جانبهم، والموافقة على ظلمهم..

هذه بعض النصائح التي بثّها الغزالي في رسالته منذ ما يقرب من ألف عام فعلّنا ننتفع بها وبأفكار عظماء الإنسانية.

وفي صفحات تالية سنجد أهمية أفكار الغزالي واضحة من خلال تأثيره في باسكال، ومن خلال اقتباسات توما الأكويني الذي اعتمد حجج الغزالي للرد على الرشديين من أبناء ملّته، وفي تعبير الرشديين إشارة أيضاً إلى أهمية ابن رشد الذي تتلمذ على يديه نفرٌ من مفكّري الغرب الذي عُرفوا بالرشديين.. فكان الغزالي حجّة للغربيين، كما كان ابن رشد حجّة لخصومهم أيضاً، مما جعل تأثيرهما كبيراً من خلال الأفكار التي طرحوها وأسهمت في تغيير العالم..




فرحة العُمْر

شعر: د. محمد الحسواني

أُلقيت في حفل زفاف ابنتي لينة وعريسها المهندس وسيم ضبعان

جعل الله حياتهم كلّها سعادةً وأفراحاً في فندق شيراتون دمشق

مساء يوم الخميس ٩ جمادى الثاني ١٤٢٤هـ / ٧ آب ٢٠٠٣م

جـــادَ الـــزمان وغـــنّتِ الفيحـــاءُ
فـــي ليـــلةٍ فيهـــا الوجـــود يُضـــاءُ

رُســـمتْ عـــلى وجـــه الخلائـــق بســـمةٌ
وبـــدا عـــلى أفُـــق السّـــماء بهـــاءُ

وأتـــت بشـــائرُ جـــاد فيهـــا خـــالقٌ
مـــلكٌ عـــ[illegible] قـــادرٌ، وعطـــاءُ

أهـــلاً بكـــلّ الحاضـــرين ففيهمـــو
تمّـــتْ مســـرتنا وحـــقّ ثـــناءُ

شـــكراً لهـــم فشـــعورهم اضـــفى عـــليـ
ـــنا بهجـــةً، ونفوســـهم ســـمحاءُ

بالأوجـــه الحســـناء يـــزهو حفلُـــنا
وكســـاهُ مـــن نســـج القـــلوب رداءُ

عُرســـاً نقيـــم وفـــي الـــنفوس ســـعادةٌ
تحيـــي القـــلوبَ مـــودةٌ وإخـــاءُ

زوجـــان قـــد عقـــد الإلـــه قـــرانهم
مـــذْ دُوّنـــت فـــي لوحـــه الأســـماءُ




لينا على عرش الكمال مليكةٌ
لمّاحةٌ موهوبةٌ شمّاءُ

ورثت مزايا أمّها وتعلّمت
أنّ الحياة محبّةٌ ووفاءُ

وإذا أطلّتْ فهي شمسٌ أشرقت
وتوزّع الأنوارَ حيث تشاءُ

يا لينُ يا زهوَ الحياة وأُنسها
ما أنت إلاّ كوكبٌ وضّاءُ

أنت الظلالُ وحين أغدو متعباً
أنت النسيم لجنّتي والماءُ

كيف الحياة بدون وجهٍ مؤنسٍ
كيف الصّباح يجيئني ومساءُ

سيظلُّ طيفُك لا يفارق مقلتي
كلُّ الحياة لمقلتيك فداءُ

يا ربَّ أرجو أن تكون لجنبها
ولجانبي فالبعد فيكَ لقاءُ

* * *

ووسيمُ نجمٌ والنجوم عوالمٌ
فيها تجلّت روعةٌ وسناءُ

فيه الشهامة والوسامة والتقى
تسري لديه رقةٌ وصفاءُ

الصدق والإخلاص ملؤُ كيانه
في لاحظيه واحةٌ غنّاءُ






وهـــو الأميـــن عـــلى حبيبـــتي الـــتي
حُفظـــتْ لديـــه وأهـــلُهُ الأمـــناءُ

فـــأبو نـــبيل لا تشـــقُّ غُـــبارُهُ
فـــي كـــلِّ ســـاح فـــارسٌ مِعْطـــاءُ

شـــهدتْ لـــهُ أفعالُـــهُ وصـــحابهُ
والأجـــرُ مـــن ربّ العـــباد رضـــاءُ

والله أكـــرمهُ بـــأنقى زوجـــة
فهُمـــا عـــلى درب الوفـــا رفقـــاءُ

وهـــي الشّـــريكة فـــي مـــراحل عمـــرهِ
دومـــاً عـــلى غصـــن الهـــوى ندمـــاءُ

أولادهـــمْ كـــالأنجم الزّهـــر الـــتي
ازدانـــت بحســـن بهائهـــا الجـــوزاءُ

وهمـــو نـــبيلٌ والوســـيم ونـــورسٌ
وربُى الفـــتاة السّـــمحة الغيـــداءُ

قـــومٌ كـــرامٌ قـــد ســـمت غايـــاتهم
لإلههـــم ولأهـــلهم خلصـــاءُ

* * *

فالشـــكر كـــلُّ الشـــكر لله العـــلي
والخيـــرُ مـــنهُ مِـــنّةٌ وســـخاءُ

ظَـــلَّلْ إلهـــي لينـــتي وعريســـها
والظـــلُّ مـــنك ســـعادةٌ ورخـــاءُ

وليُعْمِـــرُ الإخـــلاصُ بيـــتهم الـــذي
ســـيدوم فيـــه العـــزّ والأبـــناءُ







"مازال جيلنا منذ وعى، يسمع دعاوى عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة، حتى كدنا ننسى ماضيها العلمي في عصر الحضارة الإسلامية وفجر العصر الحديث".

"ومنذ عزلت عن الميدان العلمي تدريساً وتأليفاً، صارت دعوى عجزها من المسلمات البديهية التي لا تحتمل الجدل، ولم تفلح جهود نصف قرن في رد اعتبارها العلمي إليها حتى عربت "موسكو" علوم العصر: فهل كنا نحرث في الماء؟!"

في صيف عامنا هذا، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية، حسبتها أول الأمر مما ينشره "المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي" من ذخائر تراث لنا، يرى فيه رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوع جدل أو مناقشة، فممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمي يجب أن يوفر كله للسباق الظافر إلى غزو القمر.

فلما نظرت في كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية، وجدتها جميعاً من صميم علوم العصر التي وضعت لتكون مرجعاً للدارسين في الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفني.

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانباً، أو أتخفف من عبئها على خزانة كتبي، بالتماس من يهتم بموادها التي لا شأن لي بها ولا اتصال.

غير أني ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو، أحاول أن أستبين إلى أي مدى طوع العلماء السوفييت لغتنا العربية، لأحدث ما وصلوا إليه في المجال العلمي والصناعي.

بعد أن تحدثت في مادتها العلمية إلى عدد من صفوة علماء الاختصاص وفي مقدمتهم عالمنا الحكيم الدكتور محمد كامل حسين والدكتور أسامة أمين الخولي وكيل هندسة القاهرة.

وكانت مفاجأة لي، أن أقرأ لغتي في هذه العلوم العصرية، سليمة واضحة، دقيقة طيعة ميسرة، لا تتوقف ولا تتعثر.

وأن أمضي في قراءة المواد العلمية التي انعزلت عنها طويلاً، مأخوذة بلهفة من يكتشف فجأة أن أسراراً من لغته غابت عنه.

بعد كل ما ضج به أفقنا العربي المعاصر، من دعاوى طنانة رنانة، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر، وتبرر عذر جامعاتنا في الإصرار على تدريسها بلغة أجنبية.

وتنذرنا بأن نظل حيث نحن، متخلفين عن العصر علمياً وصناعياً، إن نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة، لا مجال لها في عصر العلم!

فمبلغ علمي، أن جيلنا مازال منذ وعى، يسمع هذه الدعوى تدوي كالطبول. فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه، وأما الذين اتصلوا بماضي الأمة ودرسوا تراثها العلمي، فقد وقفوا في حيرة من أمر هذه العربية: من أين أصابها العقم وهي التي استطاعت منذ عشرة قرون، وأكثر، أن تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للأمم القديمة، وأن تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ؟

وكيف يعييها اليوم أن تنقل علوماً كان للعلماء العرب، في عصر الحضارة الإسلامية، مجد الزيادة فيها وتحريرها من المنهج التأملي الفلسفي الذي كان يسيطر على العقلية اليونانية في عصر قيادتها للفكر الإنساني فيردها إلى غيبيات مما وراء الطبيعة، مترفعاً أو عاجزاً عن التجربة العلمية بمنهجها الاستقرائي الدقيق وأجهزتها المعملية؟

ومن وراء ثلاثة عشر قرناً، مضيت أساير التاريخ العلمي لأمتي، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو!

من القرن الأول الهجري - السابع الميلادي- بدأ اتصال العربية بالتراث العلمي القديم، في حركة ترجمة لكتب في النجوم، والفلك، والطب والكيمياء، برعاية أمير من البيت الأموي، هو "خالد بن يزيد بن معاوية" الملقب بعالم بني أمية.

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت في العصر العباسي الأول، وضعاً رسمياً تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخي من الخزانة العامة، وقد استوعبت الحركة في عصر الرشيد وولده المأمون، ذخائر التراث الفكري والعلمي في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة، لليونان والفرس والهند ومصر.

ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحاً جديدة على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليوناني حين هاجر إليها.

وتلقى معجم العربية رصيداً ضخماً من المصطلحات العلمية المعربة، إلى جانب الألفاظ العربية التي أمكن تطويعها للمصطلح العلمي.. ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمي قد انتظرت طويلاً ريثما يستقر رأي المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية، أو صدور فتوى من رجال الدين في جواز تعريبها..

وفـي طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسـلامية للعلم وتمجيدها للعقل انطلق علماء الدولة الإسلامية ينظرون في الظواهر الكونية بعقـلية متحررة من الخصومة العتيقة المريرة بيـن العلم والدين، فلم يمض قرن على تعريب الـتراث القديـم حتى قدم هؤلاء العلماء جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية، ودخلوا الـتاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم.

ومـن القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكـتب العـلمية الـتي ألفهـا أولئك الرواد، فاسـتطاعت لغتـنا أن تـؤدي كل مصطلحات العلوم الرياضية في الحساب والجبر والهندسة والفـلك وأن تطـوع المصطلحات العلمية في الطـب والصـيدلة والكيمياء والطبيعة والنبات والحيـوان والجغـرافيا، كمـا تلقت المراصد الفـلكية والمعامل التجريبية، الأجهزة العلمية الـتي اخـترعها علماؤنا الذين تم على أيديهم نقـل العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث العـلمي التجريـبي، وكانت في التراث البابلي مختـلطة بالسـحر، وفـي المدارس اليونانية داخـلة فـي نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية..

وكل هذا مما لا يجهله دارسو التاريخ العـربية والحضارة الإسلامية، وقد كان جديراً بأن يصل إلى المنتمين منا إلى الثقافة الغربية، عـن طـريق المؤرخيـن الغـربيين للحضارة والعـلم. وهـم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدي علمائنا في العصـر القيادي للحضارة الإسلامية، واعترفوا بأن حركة الإحياء (الرنيسانس) التي بدأت بها النهضـة الحديثة في أوربا، إنما قامت أساساً عـلى مـا انتقل إلى الغرب الأوربي من تراثنا العـلمي الحضـاري، عـلى المعابر التاريخية الكـبرى في العصر الوسيط: الأندلس وصقلية والدردنيل..

كمـا شـهدوا بـأن عـلوم الطـب والرياضـيات والفـلك والكيميـاء، سارت في الغـرب الحديث على الدروب التي عبدها رواد هـذه العـلوم من أعلام الدولة الإسلامية، وقد ثـبت تاريخيـاً أن أكـثر مؤلفـاتهم العـلمية والفلسفية كانت تدرس في جامعات أوربية إلى القـرن السـابع عشر، في أصولها العربية أو مـترجماتها اللاتيـنية التي تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادي.

وعـلى سـبيل المثال لا الحصر، يقرر تـاريخ العـلم أن رسـال "جابر بن حيان" (ت ١٩٨هـ) الـتي ألفهـا فـي الكيمياء باللغة العـربية فـي القـرن الثاني الهجري، عرفتها أوربـا فـي نصوصـها العربية وفي ترجمات لاتيـنية ثـم ألمانية (هولميارد Holmyard ١٦٧٨م) ثـم ترجمها إلى الإنكليزية (ريتشارد راسل R.Russel في طبعة لندن ١٩٢٨).

وكـتاب حسـاب الجبر والمقابلة الذي الفه "أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي" (ت ٢٣٦هـ) في أوائل القرن الثالث الهجري، نقلـه (جيـرار الكـريموني) على اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادي، ثم نشر (روزن F. Rosen" نصه العربي مع ترجمة إنكليزية في طبعة لندن ١٨٥٠.

ونشـر (نـاجل A. Nagel) ترجمة الأبـواب الخاصـة مـنه بالحساب كما وضع (جـانذز S.Gandz) كـتاباً عن مصادر جبر الخوارزمي.

وكـتاب (الحاوي لصناعة الطب) الذي ألفـه طبيبنا أبو بكر الرازي (ت ٣١١هـ) من عـلماء القـرن الثاني وأوائل الثالث الهجري، تحمل أقدم نسخة عربية منه في أوربا، تاريخ سـنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية في

باريس (الناسيونال) وترجمة إلى اللاتينية "جيرار الكريموني" عام ١٤٨٦م ونص (رينو) في ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون "الطب العربي" على أن كتب الرازي التي ترجمت إلى اللاتينية بلغة خمسة وعشرين جزءاً.

والجزء الخاص منه بالتشريح، والمعروف بالمنصوري - أهداه إلى المنصور بن اسحاق والي خراسان - نشرت ترجمته في طبعة ميلانو ١٤٨١م، ثم نشره (كونينج P.Koning) مع أجزاء من كتاب (الكناش الملكي) لعلي بن عباس والقانون لابن سينا - في طبعة ليدن سنة ١٩٠٣، وترجمة (برونر W. Bronner) إلى الألمانية في طبعة برلين ١٩٠٠.

ورسالته في الجدري والحصبة وترجمها (فالا E.Valla) إلى اللاتينية في طبعة البندقية عام ١٤٩٨م، و (جاك جوبيل J. Goupyl) إلى اليونانية في عام ١٥٤٨ وترجمة إلى الفرنسية (جاك بوليه J.Poulet) في طبعة باريس ١٨٦٦، و (لوكلير،ولينوار Leclere, Lenoir) في طبعة باريس سنة ١٨٦٦.

ونشر (جرينهل W. Greenhill) نصه العربي مع ترجمة إنكليزية في طبعة لندن ١٨٤٨.

كما نشر النص العربي مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦.

وترجمة (كارل أوبتز K.Opitz) إلى الألمانية في طبعة ليبزج ١٩١١.

وكتاب علي بن العباس (ت ٣٨٣هـ) "كامل الصناعة الطبية) المعروف بالكناش الملكي الذي ألفه بالعربية في القرن الرابع الهجري، ترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة ١٤٩٢، ثم في طبعة ليدن سنة ١٥٢٣.

وبصريات الحسن بن الهيثم (ت ٤٢٢ هـ) التي ألفها بالعربية في كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عرف مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم في ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى، ونشر (ريزنر Risner) ترجمة كاملة له بأجزائه السبعة عام ١٥٧٣، كما نشر (كارل شوي K.Schouy) بالألمانية عام ١٩٢٠ رسالة ابن الهيثم في استخراج القطب.

وكتاب (الأدوية البسيطة) للطبيب الأندلسي ابن الوفد نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة!

وكتاب (التصريف) للطبيب الأندلسي "أبي القاسم الزهراوي" (ت ٤١١هـ) ترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم في طبعتي ستراسبورج سنة ١٥٣٢، وبال [illegible] ١٥م، والجزء الخاص منه بالجراحة كان أس[illegible] للتعليم الجراحي بأوربا لبضعة قرون. وقد نشر نصه العربي مع ترجمة لاتينية في طبعة اكسفورد سنة ١٧٧٨م.

وقانون (الشيخ الرئيس ابن سينا)، أبي علي الحسين (ت ٤٢٨هـ) في الطب المؤلف بالعربية في أوائل القرن الخامس الهجري، من خمسة أجزاء، ترجمه إلى اللاتينية (جيرار الكريموني) ونشر في طبعات ميلانو ١٤٧٣، و (بادوا Padoa) ١٤٧٦، والبندقية ١٤٨٢. ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته العشرين في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ونشر نصه العربي في روما سنة ١٥٩٣م.

وكتاب (الشريف الأدريسي) (ت ٤٥٧ هـ) "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي ألفه في صقلية، في القرن الخامس الهجري، كان المرجع الجغرافي الأول في عصر النهضة، ونشرت أجزاء منه في ليدن سنة

١٨٦٦م، وفي روما مع ترجمة إيطالية سنة ١٨٨٣، وفي مدريد سنة ١٩٠١. وترجمة (دي ويه ودوتز M.D.Joeje, R. Doz) إلى الألمانية في طبعة أوبسالا سنة ١٨٩٤م.

ومفردات (ابن البيطار) (ت ٦٤٦هـ) في الأدوية، التي ألفها بالعربية في كتابه "الجامع في الأدوية المفردة" في أوائل القرن السابع الهجري عرفت في نصها العربي بأوربا في عصر النهضة، وترجمت إلى اللاتينية قبل أن ينقلها (فون زونتهايمر) إلى الألمانية في طبعة (شتوتجارت) (١٨٤٠-١٨٤٢م) ، و (لوكلير) إلى الفرنسية في طبعة باريس (١٨٧٧- ١٨٨٣م).

ثم لا أمضي في سرد ما أحيا الغرب من ذخائر تراثنا العملي الذي صد عنها المتفرنجين من مثقفينا، كونها من حفريات ماض غبر، ومخلفات موتى أفناهم البلى.

في الوقت الذي يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون، من أمثال "سارتون، وويل ديورانت، والدوميليى، ونللينو، وأماري، وآدم ميتز، ولوبون، ودي بور، وأوليري، وبراون، وكراتشكوفسكي، وتوينبي، وسيجريد هونه.." أن هذه الذخائر في أصولها العربية وترجماتها اللاتينية، هي التي أضاءت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعلم الحديث.

وأدع تاريخ العصر الوسيط، فأرى لغتنا العربية قد سايرت التقدم العلمي فاستطاعت في فجر العصر الحديث عندنا، أن تأخذ دورها في مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطبية والزراعية، في أوائل القرن الماضي. وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا، (كلوت بك) الطبيب، والدكتور (فيجري) عالم النبات، كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم، ويحضرون معجم في قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية التي ظلت لغة التعليم الرسمية إلى بداية عصر الاحتلال. ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الأولى (من العرب) الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة، عند عودتهم إلى بلادهم، من أن يلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العربية العليا بلغة أجنبية، بل قدموا إلى مكتبتنا العلمية رصيداً ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم.

ألف الجراح الشهير (محمد علي البقلي) كتباً عربية في الجراحة، و (محمد الشافعي) في الأمراض الباطنية، (ومحمد ندى) في النبات والحيوان والجيولوجية والطبيعة، والصيدلي (علي رياض) في الصيدلية والسموم، و (محمد الدري) في الجراحة والأمراض الوبائية، و(سالم سالم) في الطب الباطني، و (محمود الفلكي) في التقاويم والمقاييس والفلك، و (محمد بيومي) في الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية.

وشارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية، فكان منهم خبراء متخصصون في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها، منهم (محمد عمر التونسي) مؤلف "معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية" و (إبراهيم الدسوقي) الخبير بمصطلحات العلوم الرياضية، و (رفاعة رافع الطهطاوي) و (أحمد فارس الشدياق) و(المعلم بطرس البستاني) في ألفاظ الحضارة والفنون.

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين، بين أيدي المستشرقين العلماء الذين وفدوا على الشام في النصف الثاني من القرن الماضي، وشاركوا في هذه النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها بالعربية.

وقد اشتهر منهم الدكتور (كورنيليوس فانديك) الذي درس في بيروت بالعربية:

الكيمياء والجويات وعلم الأمراض. وعرفت مؤلفاته العربية: الباثولوجية في مبادئ الطب البشري، والنقش في الحجر (في تسع مجلدات صغيرة، كل مجلدة منها موجز في علم من العلوم الحديثة، كالكيمياء والطبيعة والنبات والجيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية). وله كتب عربية أخرى في الرياضيات، وأصول الجبر، والأصول الهندسية، وأصول علم الهيئة، ومحاسن القبة الزرقاء، في الفلك..

و (الدكتور جورج يوسف) قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات باللغة العربية. ومن مؤلفاته فيها (المصباح الوضاح في صناعة الجراح) والأقرباذين والمواد الطبية، ومبادئ التشريح والصحة والفسيولوجية، وكتاب من جزأين في مبادئ علم النبات. وقد ألف معجماً قيماً باللغة الإنكليزية في (نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية، فصحى أو عامية، لمصطلحات المعجم، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم.

و (الدكتور يوحنا ورتبات) علم في كلية بيروت، التشريح والفسيولوجية بالعربية، وألف بها كتب التشريح، والفسيولوجية، وحفظ الصحة، ورسائل عديدة في مسائل طبية.

ولا أثر من هذا الجهد السخي المبذول يصل إلى حياتنا العلمية، ودعونا من حياتنا العامة التي التقطت من بعض مصطلحات المعجميين، ما اتخذت منه موضوع فكاهة ومادة تندر..

والمفروض أن جهود العلماء في نشر التراث العلمي لعصر ازدهار الحضارة الإسلامية، واستكمال الحركة العلمية في التأليف والترجمة لمطلع العصر الحديث في النصف الأول من القرن الماضي.. كانت موجهة إلى تمكين اللغة العربية من استرجاع مكانها في تدريس العلوم والتأليف فيها، ونقل كل جديد مستحدث إلى المكتبة العلمية العربية.

لكن الذي حدث هو أن الكليات العلمية في جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبيعيات والرياضيات.. باللغة الإنكليزية أو الفرنسية، وكأن الجامعات في واد وجهود العلماء والهيئات في تعريف العلوم الحديثة ومصطلحاتها في واد آخر.

باستثناء كلية الطب في الجامعة السورية، التي تأسست في دمشق سنة ١٩١٩، في عهد الملك فيصل الأول، باسم "المعهد الطبي العربي" لتحل محل كلية الطب التركية، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية. وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوي، تدارسوا فيها المصطلحات التي جاءت في تراثنا من مكتب الطب، وفي الكتب المصرية التي ألفها علماؤنا، في عهد محمد علي، والكتب التي ألفها أساتذة الطب في جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية إلى اللغة الإنكليزية.

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتباً قيمة في فروع الطب المختلفة، وفي الكيمياء والفيزياء والمواليد.

فألف الدكتور مرشد خاطر سفراً في علم الجراحة من ستة مجلدات، وأوجزها في مجلدين.

وألف الدكتور أحمد حمدي الخياط كتاباً في علم الجراثيم، والأستاذ محمد جميل الخاني في علم الطبيعة، والدكتور حسني سبح في الأمراض الباطنية (٧ مجلدات) والدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي في الكيمياء.

ولكن هذه التجربة الناجحة في العربية لم تتكرر.. بل لم تستطع، بعد أن طال بها الزمن أربعين عاماً، أن تقنع جامعات

مصـــر وبيـــروت والخـــرطوم بتعريب كلياتها العلمية.

وكـــانت المفارقـــة العجيبة أن جامعة الأزهـــر، أعـــرق جامعـــة إســـلامية، وجامعة الـــرياض، عاصـــمة الجزيرة العربية، اعتمدتا الـــلغة الإنكـــليزية للتدريس فيما استحدثنا من كليات علمية.

وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر، قد وصلت إلى باب مسدود..

ثـــم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقّدة، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكـــتب العـــلمية الحديـــثة مطـــبوعة بالعربية الفصحى في (دارمير) للطباعة سنة ١٩٦٨!

ولـــم نســـمع أن لجانـــاً عقدت لبحث مشـــكلات هذا التعريب، أو أن جدلاً أثير حول صلاحية اللغة العربية لاستيعاب علوم العصر!

وإنمـــا خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذي ألفه:

ف. تسيجيلسكي: اللحام الكهربائي.

س. فومين: المرجع لملاحظي عمال الخراطة والعمال الفنيين.

ماليشـــيف، ونيكولاييـــف، وشوفالوف: أسس الميكانيكا العملية.

أفروتين: اسس تشغيل المعادن.

جلاجوفا: الدوال ومنحنياتها.

مـــا أقســـى الدلالـــة التي تعطيها هذه الكـــتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمـــرات المجـــامع وجهـــود العلماء، على امتداد نصف قرن من الزمان!

ومـــا أبلغ هذا الفصل الختامي لما طال جدلنا فيه وتعقدت أزمتنا به.

لقد بدأت القضية بعزل الاستعمار لغتنا عـــن العلم، ثم الدعوة إلى هجر لغتنا واستعارة الإنكـــليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة، وكأن هـــاتين اللغـــتين دون الألمانية أو الروسية أو اليابانيـــة مـــثلاً، هما المفتاح السحري لكنوز العلم.

وانـــتهت بكـــتب (دارمير) للطباعة في موسكو، في عصر غزو القمر.

فأين نحن من البداية والنهاية؟

وحين أقول: انتهت القصة، فإني أعني أنهـــا انتهت، أو يجب أن تنتهي، من حيث هي قضـــية لغويـــة ظلت مطروحة أكثر من نصف قـــرن، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقـــل عـــلوم العصر، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمي وفاقتنا الثقافية..

ويـــبقى أن يلـــتمس الباحـــثون أسباباً أخـــرى لاســـتمرار عـــزل الـــلغة العربية عن معاهدنـــا العلمية العالية، بعد أن خرجت دعوى عقـــم لغتـــنا وعجـــزها، من مجال الخصومة والجـــدل، وظهر بوضوح أننا في تبرير موقف جامعاتـــنا بهـــذا العقـــم في العربية، والتماسنا شـــتى الوســـائل لعلاجـــه، كنا كمن يحرث في البحر..

وإذا كـــانت العربية قد صمدت لكل هذه الحمـــلات الضـــارية التي جاءتها من الأجانب الغـــرباء ومـــن أبـــنائها المـــتغربين، تحاربنا بالـــلهجات العاميـــة حيناً وبالخط اللاتيني حيناً آخـــر، وتـــتهمها بالبداوة والعقم فتعزلها عن الميـــدان العـــلمي لـــتظل نائيـــة بها عن روح العصر.

أقول إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحمـــلات، فلأنهـــا دون ريـــب تملك من القوة والحيويـــة والصـــلاحية للبقاء، ما قاومت به محـــاولات المسخ ورفضت نبوءة المتنبئين لها بالموت.




أجمل ما في الحب

شعر: أ. جابر خير بك

وأجمـــلُ مـــا فـــيَ الحـــب صـــدٌ وحَظــوةٌ
وبعـــد عـــن الـــنجوى وقُـــربٌ مـــن القـــلبِ
فللقـــلبِ فـــي هَجـــر الأحـــبة ســـكرةٌ
تطـــول. وللعيـــنين شـــوقٌ إلى القـــرب
وأصـــفى الهـــوى يحيـــا بقـــلبٍ معـــذبٍ
وأصـــدقه مـــا فـــاض مـــن مدمـــع الصَّـــبِ
إذا لـــم يكـــنْ فـــي الحـــب صـــدٌ ورغـــبةٌ
فهـــل يطـــربُ التشـــبيبُ فـــي عـــالم الحـــبِ
وهـــل نفهـــم الأفـــراحَ إن لـــم يكـــن لهـــا
بديـــلٌ. هـــي الأحـــزان فـــي عـــتمة الـــدربِ
أحاسيسُـــنا نصـــفٌ ســـعيدٌ ونصـــفُها
حـــزينٌ. وهـــذا الأمـــرُ مـــن حكمـــة الـــربِ
يطوّحـــنا بيـــن الســـعادة والأســـى
لـــنؤمنَ أن العمـــرَ ضـــربٌ مـــن الـــلُّعْبِ
فمـــا اخضـــرَّ قـــلبٌ فـــي الهـــوى دون لفحـــةٍ
مـــن الهجـــرِ تدميـــه فيمـــرعُ فـــي الخِصْـــبِ
ولا تغفـــو عيـــنُ المســـتهامِ قريـــرةً
إذا مـــا نـــأى طيـــفُ الحـــبيب عـــن الهُـــدْبِ






الشباب العربي في مرحلة، جزء كبير من حال الأمة العربية، يجب الوقوف عليها طويلاً والبحث في ماهيته، وما كان وما يجب أن يكون وهذا بحد ذاته مسؤولية قومية حول مستقبل الأمة، ونحن نلاحظ في الأبحاث والدراسات شحاً في هذا الجانب من البحث العلمي الذي يدرس الجانب الشبابي من المجتمع رغم أننا نتحدث دائماً عن دور الشباب في نهوض الأمة.

والشباب في مجتمعنا يقع في مرحلة صعبة، مرحلة الماضي القادم من الجهل وفترة استعمار واحتلال، ثم فترة الصراعات السياسية وأحداثٌ متسارعة تمسّ كيان الدولة من أساسه ومرحلة ثانية هي مرحلة الانفتاح على الشعوب وعلى العلوم وعلى ثقافات الغرب والشرق والشمال والجنوب..

وهذا بحد ذاته قد يجعل هناك تصادماً واضحاً في نفسية الشاب إن لم يكن متمكناً من خلفية تربوية تدعّم نفسيته وثقافته، كما أن الاحتلال القابع في أغلب المناطق العربية كالعراق وفلسطين وبعض الأطراف الهامة من بقية الدول العربية هذا إن كان إستعماراً مباشراً، إضافةً إلى الاستعمار الغير مباشر الواقع على أغلب البلدان العربية بمختلف أشكال الاستعمار القريب منها والبعيد.

كل ذلك يجعل من الشباب في مرحلة خطرة لا بد من ملاحظتها ودراستها على الأساس العلمي الديموغرافي والإيديولوجي والفيزيولوجي مع كل إضافات قد تيؤثّر على هذا الشاب من ناحية صعوبة الحياة الحالية ومتطلباتها التي تؤثر على نفسية الشاب بكل جوانبها.

فيعيق إعاقة تامة أو بنسبة عالية من أداء الشباب، أو يخرجه من أرض الوطن إلى

الدول الأخرى، كهجرة للشباب بحثاً عن الذات ومصدر الرزق والحياة الأفضل، لتستقبلهم في المهجر آفات وآفات من جميع مجالات الحياة والتوجهات الخطرة التي قد تأتي على غسل الأدمغة الشبابية وبالتالي فقد يتخلون عن أوطانهم مقابل الحياة اليومية والمتطلبات الشخصية والمستقبلية التي قد تأتي بمردود خطر وسلبي على مستقبل الأمة.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أهمية الدور الشبابي واستحضاره في صياغة حركة المجتمعات وحضاراتها وتأثيرهم الأبرز، وإسهاماتهم الفاعلة في تكوين حاضر الأمة والتأسيس لمواجهة التحديات والهموم من خلال تراكمات وتحولات صنعتها أجيال في عصور تاريخية معينة سابقة، وإن أهمية الشباب تتجلى في معاني القوة والقدرة والطاقة التي يحملها في التغيير والتنمية لما يعنيه هذا الجيل من قوة وقدرة وطاقة في استيعاب خصوصية الأمة العربية والدفاع عنها وحمايتها وتنمية جوانبها بما يخدم المجتمع، ويحقق الفاعلية لدوره ووجوده في بناء المجتمع والدولة وبناء المستقبل.

وللتأسيس لهذه الفاعلية ولهذه المرحلة لا بد من عدم إهمال الجوانب الهامشية إضافة إلى دراسة الوضع الأساسي والمتطلبات الأساسية للشباب من جميع النواحي، لإشباع شيء داخلي قد يؤثر على أدائهم بشكل عام، أي لا بد من دراسة الحالة النفسية الاجتماعية والمشكلات التي تعترض الشباب ومحاولة حلّها بالشكل الأسلم المتناسب مع متطلبات العصر، وتوازيهم مع الشباب في أصقاء أخرى من العالم، خصوصاً مع وجود هذا التواصل الاتصالي بين مختلف بقاع الأرض ومختلف الحضارات، ودخول الأنترنيت على الفكر والتأثير عليه بشكل واضح، مما يجعل الشباب يمتلكون بين أيديهم مجموعة الفكر الحضاري عند البشرية إن شاؤوا استحضارها.

كما لا بد من التركيز على تنشئة الجيل تنشئة صحيحة صحيّة خالية من الأمراض النفسية والاجتماعية قبل البدنية، ذلك لأن وضع الشباب اليوم قد تغيّر تماماً وتعقّدت أساليب التنشئة والتربية، وما يلاحظ تداخله في هذا الشأن تأثير الأسرة والبيئة والمدرسة والإعلام والمراكز الرياضية والمحيط والأنترنيت والكومبيوتر مما يقلّص دور الأسرة في بعض الأحيان إلى دور المراقب إن استطاع الرقابة والتوجيه.

لذا لا بد من التأمّل مليّاً بهذا الشأن ووضع اليد على الجرح في المشاكل الشبابية وإيجاد حلول صحيحة لها، وهنا لا بد من الإشارة إلى ضرورة الملاحظة في هذا الشأن إلى توفير المناخ المناسب للشباب للإبداع بأنه ومع جيل الأنترنيت وعولمة الفكر والعلم نرى أنه خلق جانبين نقيضين فقد خلق جيل أدعى إلى الإبداع وخلق جناح آخر أقرب إلى التخلخل بنفسيته وانتماء هذا الشاب مما يسعى معه سلبياً نحو امتلاك أخلاقي وفكري وهنا يكمن الخطر.

لا بد للشباب أن يهتدي بهدي الأمة حاملاً رايتها في مختلف ميادين الحياة، وأن يسعى ويشعر من ذاته ومن محيطه بمسؤوليته لرسم مستقبل الأمة، وها هم شباب الانتفاضة وأطفال الحجارة قُدوة في زمن التراجع..

فتحية لكل من امتشق القلم والسيف دفاعاً عن كرامة الأمة ووجودها ومستقبلها.




خلعُ العذار

شعر: ابن زيدون

سَقَى الغَيْثُ أطلالَ الأَحبّةِ بالحمَى،
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا،
وَأَطْلَعَ فِيهَا، لِلأَزَاهِيرِ، أَنْجُمَا،
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائدُ كالدُّمَى،
إذِ العَيْشُ غَضٌّ، وَالزّمَانُ غُلامُ

* * *

أَهِيمُ بجَبّارٍ يَعِزّ، وَأَخْضَعُ،
شَذَا المسْكِ، مِنْ أَرْدَانِه يتَضَوّعُ،
إذا جِئتُ أَشكُوهُ الجَوَى لَيسَ يَسمعُ
فَما أَنا في شيءٍ مِنَ الوَصْلِ أَطْمَعُ،
وَلا أَنْ يَزُورَ، المُقْلَتَينِ، مَنامُ

* * *

قَضِيبٌ، مِنَ الرّيْحَانِ، أَثْمَرَ بالبَدْرِ،
لَوَاحِظُ عَيْنَيْه مُلِئْنَ مِنَ السّحْرِ،
وَديباجُ خَدّيْهِ حكَى رَوْنَقَ الخَمْرِ،
وَأَلْفَاظُهُ فِي النُّطْقِ كاللُّؤلُؤ النَّثْرِ،
وَرِيقَتُهُ في الارْتشَافِ مُدَامُ







* * *

سَـقَى جَنَـبَاتِ القَصْـرِ صَـوْبُ الغَمَـائِمِ،
وَغَـنَّى، عَـلى الأَغْصَـانِ، وُرْقُ الحَمَـائِمِ،
بقُرْطُـبَةَ الغَـرّاءِ، دارِ الأَكَـارِمِ،
بِـلادٌ بِهَـا شَـقَّ الشَّـبابُ تَمَـائِمي،
وَأَنْجَبَـني قَـوْمٌ، هُـنَاكَ، كِـرَامُ

* * *

فكَـمْ لِـيَ فِيهَـا مِـنْ مَسَـاءٍ وَإِصْبَـاحِ،
بِكُـلِّ غَـزَالٍ مُشْـرِقِ الوَجْـهِ، وَضَّـاحِ،
يُقَـدِّمُ، أَفْـوَاهَ الكُـؤوسِ، بِـتُفَّاحِ،
إِذا طَـلَعَتْ، فـي رَاحِـهِ، أَنْجُـمُ الـرّاحِ،
فَإِنَّـا، لإِعْظَـامِ المُـدَامِ، قِيَـامُ

* * *

وَيَـوْمٍ لَـدَى النَّبْـتِيِّ فـي شَـاطِئِ الـنَّهْرِ،
تُـدَارُ عَلَيْـنَا الـرّاحُ فـي فِـتْيَةٍ زُهْـرِ،
وَلَيْـسَ لَـنَا فَـرْشٌ سِـوَى يَـانِعِ الزُهْـرِ،
يَـدُورُ بهَـا عَـذْبُ اللَّمَى أَهْيَـفُ الخَصْـرِ،
بِفِيـهِ، مِـنَ الـثَّغْرِ الشَّـنِيبِ، نِظَـامُ

* * *

وَيَـوْمٍ بِجَوْفَـي الرُّصَـافَةِ مُـبْهِجِ،
مَـرَرْنَا بِـرَوْضِ الأُقْحُـوَانِ المُدَبَّـجِ،








وَقَابَلَــــنَا فيــــه نَسِــــيمُ البَنَفْسَــــجِ،
وَلاحَ لَــــنَا وَرْدٌ كَخَــــدٍّ مُضَــــرَّجِ،
نَــــراهُ أَمَــــامَ الــــنُّورِ وَهْــــوَ إِمَــــامُ

* * *

وَأَكْــــرِمْ بِأَيَّــــامِ العُقَــــابِ السَــــوَالِفِ،
وَلَهْــــوٍ، أَثَــــرْنَاهُ بِتِــــلْكَ المَعَــــاطِفِ،
بِسُــــودِ أَثِيــــثِ الشَّــــعْرِ بِيــــضِ السَــــوَالِفِ،
إِذا رَفَــــلُوا فــــي وَشْــــيِ تِــــلْكَ المَطَــــارِفِ،
فَــــلَيْسَ عَــــلى خَــــلْعِ العِــــذَارِ مَــــلامُ

* * *

وَكَــــمْ مَشْــــهَدٍ عِــــنْدَ العَقِيــــقِ وَجِسْــــرِهِ،
قَعَدْنَــــا عَــــلَى حُمْــــرِ النَّــــبَاتِ وَصُــــفْرِهِ،
وَظَــــبْيٍ يُسَــــقِّينا سُــــلافَةَ خَمْــــرِهِ،
حَــــكَى جَسَــــدي فــــي السّــــقْمِ رِقَّــــةَ خَصْــــرِهِ،
لَوَاحِظُــــهُ، عِــــنْدَ الــــرُّنُوِّ، سِــــهَامُ

* * *

فَقُــــلْ لِــــزَمَانٍ قَــــدْ تَــــوَلَّى نَعِيمُــــهُ،
وَرَثَّــــتْ، عَــــلى مَــــرّ الــــلَّيالي، رُسُــــومُهُ،
وَكَــــمْ رَقَّ فِيــــهِ، بِالعَشِــــيِّ، نَسِــــيمُهُ،
عَــــلَيْكَ مِــــنَ الصّــــبّ المَشُــــوقِ سَــــلامُ!

* * *

